الطبعة الثانية



التيارات المتطرفة (من الإخوان إلى داعش) في ميزان العلم

مفاهيم الحاكمية والجاهلية والجهاد والوطن، مع بيان التصورات المغلوطة لها عند التيارات المتطرفة، في مقابل التصور الصحيح لها عند علماء الأمة

بقلم

أسامة السيد محمود الأزهري

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION

الحَقُّ المُبِين
في الرَّدِّ على مَنْ تَلاعبَ بالدين

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الفقيه
للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION

www.daralfaqih.com

دار الفقيه للنشر والتوزيع

أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة

هاتف: +9712 6678920

فاكس: +9712 6678921

الحَقُّ المُبين
في الرَّدِّ على مَنْ تَلاعَبَ بالدين

التيارات المتطرفة (من الإخوان إلى داعش) في ميزان العلم

مفاهيم الحاكمية والجاهلية والجهاد والوطن، مع بيان

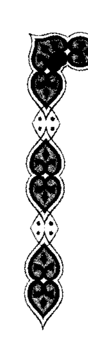
التصورات المغلوطة لها عند التيارات المتطرفة، في مقابل

التصور الصحيح لها عند علماء الأمة

بقلم

أسامة السيد الأزهري


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا مشروع علمي أزهري مؤصل، يستعرض على مائدة البحث العلمي، والتحرير المعرفي الدقيق، خلاصة المقولات والنظريات والأفكار، التي بني عليها فكر التيارات السياسية المنتسبة للإسلام في الثمانين عاما الماضية، قياما بواجب البيان للناس، وصيانة للقرآن الكريم من أن تلتصق به الأفهام الحائرة، والمفاهيم المظلمة المغلوطة.

ولقد كانت حصيلة الثمانين عاما الماضية أن تركت بين أيدينا اليوم أطروحات دينية، ابتغت خدمة الشرع، وتحمست له، وتتابعت على ذلك عندهم أجيال، فوضعوا لأنفسهم أصولا، وصنعوا نظريات فكرية تنتسب إلى الشرع، وقُدِّمت تنظيرات، وكتبت تأصيلات، وألفت كتب ومؤلفات وإصدارات، وأنشئت قصائد وأدبيات، وصدرت صحف ودوريات، وكم من قضية أو نازلة طرأت، كان لهم فيها رأي وأطروحة، مع أحداث تاريخية عاصفة، ووقائع ملتبسة، وموارد فكرية متداخلة.



كل ذلك في جو نفسي مشحون وعاصف، سقطت فيه الخلافة، وتحير العقل المسلم في تلمس طريقٍ وانتماء، ووجدت إسرائيل، ووقعت حروب، وتلاطمت الأمواج بالأمتين العربية والإسلامية، وحصل حراك فكري، وتحولات اجتماعية، وكانت صدمة العصر حاضرة، بحيث تحيرت عقول كثيرة، وعجزت عن هضم الواقع واستيعابه، وتكييفه وتحليله، وتقديم أطروحات التعامل معه.

ولقد حصلت في أثناء ذلك حركة حافلة وحاشدة، دأبت على أن تتلمس لنفسها أصلا ومدخلا وسبيلا واستمدادا من القرآن الكريم والسنة المشرفة، وكان الغالب على القائمين على ذلك الحماس لهذا الدين، والتداعي له، وتحريك المشاعر والعواطف إليه، والصدق واللهج والولع بنصرته، مع عوز وفاقة وافتقار في أدوات الفهم والاستنباط.

فكم من نازلة وواقعة وحدث وموقف استدعوا فيه آية كريمة أو حديثا نبويا، يرون أنه شاهد لهم، أو مسعف في موقفهم، لكن لم يكن لهم صبر على عملية الاستنباط، بآلاتها، وفنيَّاتِها، وإجراءاتها ومعاييرها، ودوائر علومها الخادمة، ومقاييس التثبت من دقة النتائج والأفهام التي تم استنباطها، حتى تحصل الدرجة الأخيرة من الثقة في دقة الاستنباط من منابع هذا الدين، نظرا لما يشتمل عليه ذلك من حساسية بالغة، في أن ينسب الإنسان إلى الوحي الشريف فهما يناقض الوحي، أو لا يصح صدروه وسريانه منه، أو يضطرب في استكشاف النظرية التي يريدها القرآن ويرشد إليها.

وعليه فقد تراكمت عندنا على مدى السنوات الثمانين عدة مفاهيم وأطروحات ونظريات وتنظيرات واستدلالات، غير مخدومة ولا مؤصلة، أقدم عليها الأدباء والكتاب والدعاة والمتحمسون، فضلا عمن دخل في مجال العلم الشرعي من الأطباء والمهندسين وأصحاب الحرف والمهن المختلفة، ممن أجهد نفسه في دراسة الشرع، ثم تحول إلى ممارسة صنعة الاجتهاد، مع اضطراب في امتلاك أدواته أو التمرس به.

فكان نتيجة ذلك أن ألصقت بالشرع الشريف أفهام حائرة، ومقولات خطيرة، واستدلالات مضطربة، من ورائها أحداث صعبة، ونوازل عظيمة، وسجون ومعاناة وقتلى، مما أنتج جوا مشحونا محموما مندفعا، تختلط فيه المعاناة والابتلاءات بالفكر والعلم والاستنباط، مما يرجع على صنعة العلم بالتشويش، والوقوع تحت الضغوط النفسية الهائلة، مما ينتج فقها مغرقا في التشويش والاضطراب والاندفاع.

والأزهر الشريف الذي هو منهج علمي رصين مؤصل، يجر من ورائه تجربة ألف سنة في صنعة التعليم والتمرس بدقائق الصناعة العلمية، وتخريج العلماء المتبحرين، عبر أجيال ممتدة، ودوائر علوم متضافرة، وطول زمن صقل التجربة وسدد ثغورها، وعزز تكاملها وإتقانها ونضجها وبلورتها، وابتعاث الألوف من علماء الأقطار إليه، على اختلاف بيئاتهم وطبائع معيشتهم ومعطيات مجتمعاتهم، مما زاد التلاقح المعرفي بين الأزهر وبين المدارس العلمية في المشرق والمغرب، حتى استقرت معه مناهج العلم والمعرفة على نحو نادر الحدوث في شعوب الإسلام ومدارسه في المشرق والمغرب.

وقف الأزهر الشريف بكل ما يشتمل عليه من الموارد المعرفية الأصيلة المذكورة، يرقب ذلك بكل أناة وتأمل، وهو يعرض ما أنتجته تلك التيارات من أطروحات واستدلال وفهم للوحيين، وتنزيل له على الوقائع، على ميزان العلم العميق المؤصل، فما ترك حادثة ولا نازلة إلا وقد رصدها ولاحقها، وعكف على فحصها وتحليلها، وإبداء الرأي فيها، ولربما اشتهر نتاج ذلك وذاع، ولربما خفي جهده في ذلك وتوارى نتيجة عدم الخدمة التوثيقية والأرشفة والتوصيل الإعلامي وما أشبه.

حتى تصاعد الأمر في الأعوام الأخيرة على نحو فادح، وتسارعت حركة الاستدلال والاستدعاء لآيات القرآن في مواردها وفي غير مواردها، بل بدأت الأطروحات الفكرية التي أثمرتها الثمانون عاما الماضية تزداد تعقيدا وتداعيا، وتتولد من المفاهيم الكلية الكبرى عندهم مفاهيم جزئية، وخرج ما كان كامنا من تلك الأطروحات إلى حيز التنفيذ والجدل، وازداد أربابه بعدا عن مناهج أهل العلم، حتى انقضت تلك الأجيال الأولى التي ربما كانت تدرك معنى العلم وتقدر له قدره، وآل الأمر إلى الأجيال الناشئة المتحمسة، ممن أجرى قلمه بمقال أو خطبة أو كتابات متحمسة، فإذا به قد تسلط هو اليوم للتنظير والاستنباط، مما أنتج خطابا دينيا صارخا وصادما وقبيحا، وفاقدا لمقاصد الشريعة بل مدمرا لها.

كما أعيد اليوم بعث فكر التكفير الذي كان كامنا في كتب التيارات المتطرفة، فتم تحويله إلى تنظيمات وجماعات وتطبيقات، بل تولدت منه الأجيال الثواني والثوالث من الأفكار والتطويرات والاستدلالات، مما

أفضى بنا إلى تيارات تقطع الرقاب، وتسفك الدماء، وتروع الآمنين، وتنقض العهود، وتمتهن دين الله، وتلصق به أفهامها المتحيرة، وتفسيراتها الفادحة، مما يمكن تسميته بظاهرة التفسير الغاضب للقرآن الكريم.

إنها تيارات تدعي الانتساب إلى الوحي، وتتمرد على المنهج، ويغلبها الواقع.

فكان لابد من وقفة تاريخية أزهرية، يستنفر فيها الأزهر علومه ومعارفه وتاريخه وأعيانه ومناهجه وأدواته العلمية، ويضع نتاج تلك التيارات تحت المجهر، حتى يصدر فيها الرأي الفصل، وينفي عن دين الله تعالى ما ألصق به من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وتجديد الخطاب الديني معناه إزالة كل ما علق بهذا الشرع الشريف من مفاهيمَ مغلوطةٍ، أو تأويلات منحرفة، أو استدعاءٍ خاطئٍ لآيات القرآن في غير ما قصدت إليه، وإعادة إبراز مكارم الشريعة، وسمو أخلاقها، ورصانة علومها، عن طريق تفعيل مناهج الاستنباط المنضبطة الرصينة، حتى يرجع جوهر هذا الدين نقيا ساطعا، يرى الناس فيه الهدي والسكينة والعلوم والمعارف والحضارة، قال الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة: (إنما التجديد هو أن يُعاد إلى الدين رونقه، ويُزال عنه ما علق به من أوهام، ويُبين للناس صافيا كجوهره، نقيا كأصله).

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا وقفة أزهرية تاريخية عكفت على الرصد والتلخيص والاعتصار والمقارنة للمفاهيم، وتمييز الأصلي المحوري منها من الجانبي العارض، حتى تم التلخيص والاستخراج الأمين للمرتكزات

والأصول والمقولات التي بنيت عليها أطروحات الإسلاميين المعاصرين، كقضية الحاكمية، وقضية الجاهلية، وحتمية الصدام، ومفهوم الجهاد، ومفهوم الخلافة، ومفهوم المشروع الإسلامي، ومفهوم العلاقة بين ديار المسلمين وديار غير المسلمين، ومفهوم التمكين، وعلاقة القوانين بالشريعة، ومفهوم الوطن، وغير ذلك كثير، من المفاهيم الملتبسة المفخخة، التي أنتجت الكثير من التكفير والدماء في القرن الماضي وإلى يومنا هذا.

إن الأزهر الشريف اليوم ليسير على قدم ابن عباس رضي الله عنهما، ويقتفي أثره عندما دخل إلى الخوارج لمناقشتهم، فتعرض لحصر مقولاتهم الفكرية، وما عندهم من إشكالات، ثم عرضها على مائدة البحث العلمي، حتى تسلط بأدوات المعرفة الحاضرة في ذهنه على ما أنتجوه من فكر مضطرب وتأويل منحرف، وبسط لهم الإجراءات والمدارك التي يعتمدها أهل العلم في الاستنباط من الوحي، مع مداخل ومقدمات استعان بها في تهيئة مجال المباحثة، فكان رضي الله عنهما نموذجا مبكرا من قيام المنهج العلمي المنضبط الرصين، برصد مقولات التيارات الفكرية في زمانه، وفتح أبواب النقاش، وإزالة ما ألصق بالوحي من أفهام مغلوطة وتأويلات متغالية.

ومن العجيب أن التيارات الفكرية في زمانه بدأت حركتها في تكفير المجتمع وحمل السلاح في وجهه بمسألة الحاكمية، بناء على فهم سقيم لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

والحاكمية هي بعينها المسألة الأم، التي انطلقت منها سائر التيارات

---

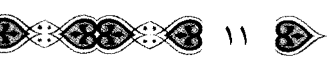
(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

المتطرفة في زماننا هذا أيضا، من الإخوان إلى داعش، مرورا بسائر الحركات والتنظيمات المتفرعة والمنبثقة منها، وكان مرتكز الإشكال في الحقيقة أيضا هو البداية بالفهم السقيم لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

مما يوصلنا إلى أننا أمام منهجين، منهج فكري مستقيم، في الأزهر الشريف، ويقابله: منهج فكري سقيم ومضطرب، مفعم بالتشنج، غاضب ومندفع وعدواني، عنده حماس للإسلام دون فقه ولا بصيرة ولا أدوات للفهم، إلى غير ذلك من سماته وخصائصه الثابتة، وهو يظهر عبر الزمان على هيئة موجات متتالية، وكلما مضت عدة أجيال برزت منه موجة جديدة، بهيئة مغايرة، وتحت شعار واسم جديدين، لكنها تستصحب طريقة التفكير بعينها، وتعيد نفس المقولات والنظريات بعينها، وترتكب الأخطاء الفادحة في فهم الوحي بعينها.

إن التيارات الإسلامية المتطرفة في زماننا، والتي تأسست أطروحتها على قضية الحاكمية وتكفير الحكام والمحكومين، وقضية الجاهلية التي هي عندهم ردة وكفر، وقضية حتمية الصدام، وقضية التمكين والاستعلاء، إلى غير ذلك من القضايا، إذا ما أرادت أن تنتسب، وتبرز عمود نسبها المعرفي، وتفصح عن سند علمي معرفي تنتمي إليه، ومدرسة فكرية تنبثق منها، لوجدنا أنها ينتهي سندها ونسبها المعرفي إلى فكر تلك الفئة التي ناظرها وناقشها ابن عباس رضي الله عنه، والتي سميت في فترة زمنية بالخوارج، وتسمى في زمننا بأسماء

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.



متعددة، وهيئات مختلفة متصارعة، من الإخوان إلى داعش.

وإن الأزهر الشريف إذا ما أراد أن يفصح عن سنده العلمي، ونسبه المعرفي، لوجدنا أنه ينتهي في نسبه الأعلى إلى ابن عباس ﵄، في ذلك الموقف التاريخي الرصين المشرف، من التيارات المتطرفة في زمانه، حيث استدعى قواعد العلوم، وأعاد شرح الآيات التي التبس فهمها على تلك التيارات، بما يبرز جلال القرآن وعلومه، ويبرز مقدار افتقاد تلك التيارات لأدوات الفهم ومناهجه.

فالأزهر الشريف هو الوعاء الحافظ الأمين، الذي وعى مناهج أئمة العلم من ابن عباس ﵄، مع من تبعه وورثه وجاء من بعده من أئمة العلم عبر الأعصار، من السادة العلماء المتبحرين، الأمناء على الوحي، المتضلعين من العلوم الخادمة له، المستبصرين بمقاصده، القائمين على تنقيح علومه، المتتبعين لكل ما يبرز في أي زمن من مناهج مضطربة، وتيارات متطرفة، ليقوموا بواجب زمانهم، من التبصير في الدين، وإزالة ما ألصق به من أفهام مضطربة، وردع من يتهجم على الوحي والعلم بدون زاد من المعرفة، وإن كان تقيا صالحا متعبدا.

فلم يزل ذلك المنهج الذي انقدح على يد ابن عباس يتسلسل في أجيال أهل العلم ومدارسه الأصيلة، حتى آل ذلك كله إلى وعاء العلم، وكعبة المعارف، وحصن الإسلام: الأزهر الشريف، والذي يقف اليوم أمينا على العلم، كما وقف ابن عباس من قبل.

وسوف يأتي ذكر قصة ابن عباس بتمامها بعد صفحات، مع تعليقات

كاشفات لما تشتمل عليه من منهجية نظر، ومدارك معرفة، وآداب بحث.

واستمرارا لهذه الموقف فإننا عاكفون أيضا على إعداد جمهرة أو موسوعة أو مرصد للآيات والأحاديث، التي انتهكها الفكر المتطرف، وتأولها على غير وجهها، واستدعاها في غير ما نزلت لأجله، أو حرف دلالتها، متجاوزا قواعد علم الأصول، وعلوم البلاغة والعربية، وآداب الاستنباط عموما، حتى يكون تلك الجمهرة معجما يتناول كل آية ألصقت بها الأفهام المغلوطة، ثم يبسط معناها ويشرح دلالاتها، ويبين وجه الغلط في استدلال التيارات المعاصرة بها.

ولا يعني هذا أن الأزهر يحتكر لنفسه حق تأويل النص، أو أنه يقصر المعرفة على نفسه دون غيره، بل الأمر راجع إلى منهج علمي رصين، حافظ الأزهر عليه، ونشره، وعلمه، وأودعه في الكتب، وجعله متاحا، بل قد قامت على هذا المنهج مدارس أصيلة، كالزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، والجامع الأموي في دمشق، وجامع الفاتح في استانبول، وأربطة العلم في حضرموت، ومحاضر شنقيط، ومسايد السودان، والمدارس العلمية الموقرة في الملايو والهند والعراق، والعمق الأفريقي، وغير ذلك من المدارس العلمية الأصيلة في أقطار المسلمين، فالأمر ليس احتكارا للمعرفة، بل غيرة على هذا المنهج المتاح، وعلى كل من أراد أن يشارك في الاستنباط من القرآن ألا يقصر في تحصيل هذا المنهج وإتقانه وإحراز الشهادة والإجازة العلمية فيه، وإلا فهو معتد على العلم، ومقصر في طلبه وتعلمه.

وأخيرا فإننا نضرع إلى الله تعالى أن يرزقنا جميعا كمال التوفيق، وأن ينعم بالهداية والسداد علينا جميعا، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

** ** **

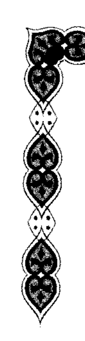


(١)

الحاكمية

وتكفير المسلمين جميعا





الحاكمية

* الفكرة المحورية التي تأسست عليها بقية مفاهيم التيارات الإسلامية هي فكرة الحاكمية، فإنها هي الجذر الذي نهضت على أساسه منظومتهم الفكرية بكل مقولاتها، ومفاهيمها، وفروعها، ومنها تولدت بقية مفاهيمهم:

فانبثقت منها فكرة: شرك الحاكمية وتوحيد الحاكمية عند سيد قطب وأخيه محمد قطب، وتولدت من ذلك فكرة العصبة المؤمنة، وفكرة الوعد الإلهي لهذه العصبة المؤمنة، وفكرة الجاهلية، التي هي حالة بقية المسلمين، وفكرة المفاصلة والتمايز الشعوري بين الفئتين، وفكرة الاستعلاء من العصبة المؤمنة على الجاهلية وأهلها، وفكرة حتمية الصدام بين الفئتين عند سيد قطب لإقامة الخلافة، وفكرة التمكين، إلى آخر شجرة المفاهيم التي نتجت من قضية الحاكمية، والتي تتكون من مجموعها نظرية متكاملة داخل عقل تلك التيارات.

* عند التفتيش عن الخيط الناظم، والمنجم الفكري، الذي تولدت منه كل تلك الأطروحات، تبين أنه كتاب: (ظلال القرآن)، وأن ما سواه من كتب سيد قطب ككتاب: (معالم في الطريق) فما هي سوى مقتطفات من كتاب (الظلال)، حتى قال القرضاوي في: (مذكراته): (إن فكرة التكفير

لمسلمي اليوم لم ينفرد بها كتاب «المعالم»، بل أصلها في «الظلال» وفي كتب أخرى أهمها «العدالة الاجتماعية»)[1].

فـ(ظلال القرآن) هو المدونة الأساسية التي ترتكز عليها، وتنبثق منها كل تلك التيارات التكفيرية، مما يحتم وضعه تحت المجهر، وقيام عمل علمي نقدي دقيق، يعتصر الكتاب، ويلخص مقولاته، ونظرياته الأساسية، وعباراته المفتاحية، ويستخلص من بين أجزائه وصفحاته المطولة، وإسهابه البياني المستطرد: تلك المقولات الرئيسية.

* ويؤكد ذلك أن صالح سرية وكتابه: (رسالة الإيمان)، التي تنادي بتكفير الحكام وجاهلية المجتمع واعتباره دار حرب قد نبعت من سيد قطب وكتابه (ظلال القرآن)، وأن شكري مصطفى وتنظيم التكفير والهجرة قد انبثق من (ظلال القرآن)، وأن محمد عبد السلام فرج وتنظيم الجهاد وكتاب: (الفريضة الغائبة) كذلك، انتهاء بتنظيم (داعش).

* وبيان ذلك أن تركي بن مبارك البنعلي، كتب كتابا عن الرجل الثاني في (داعش): أبي محمد العدناني: طه صبحي فلاحة، واسم كتابه: (اللفظ الساني، في ترجمة العدناني)، فذكر أنه تأثر جداً بتفسير (ظلال القرآن) لسيد قطب، وأنه كان من أحب الكتب إلى قلبه، حتى عكف عليه عشرين سنة، وهم بكتابته بخطه، وأنه في درس التلاوة مر على قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، فهزته هذه

(١) ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة /٣/٦٩/، ط: دار الشروق، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

الآية من أعماقه، فقال لأحد أقرانه في الطلب: (ما هي مصادر دستور سوريا؟)، فأجابه، ثم قال: (ما هي السلطة التشريعية؟) فأجابه، ثم قال: (ما هي السلطة القضائية، والتنفيذية؟)، كل ذلك وصاحبه يجيبه بما تعلمه في المدرسة، فقال له: (يا فلان يعني حكومتنا كلها كافرة!)، فقال له صاحبه: (السلام عليكم)، وولى عنه هارباً! فكان هذا بدايته في بحث مثل هذه المسائل.

وقال صالح سرية في: (رسالة الإيمان): (إن الحكم القائم اليوم في جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر فلا شك في ذلك، والمجتمعات في هذه البلاد كلها مجتمعات جاهلية).

فتبين من ذلك أن تنظيم داعش في حقيقته، إنما هو في الحقيقة موجة جديدة من أمواج الفكر التكفيري المنبعث من (ظلال القرآن)، وأن كتاب: (الظلال) هو القاسم المشترك، والخيط الناظم، والروح السارية، لكل تلك التيارات التكفيرية.

* كل ذلك يحتم علينا العكوف على إنجاز كتاب علمي نقدي دقيق، يفند الأطروحات التي جاء بها ذلك الكتاب، والتي ولدت تلك التيارات.

* ونحن في غنى عن التنبيه والتذكير بأن شخص سيد قطب في ذاته لا يعنينا، فقد مضى إلى دار الحق، وهو بين يدي الحكم العدل، لكن الذي يعنينا هو أطروحته القرآنية في فهم القرآن، ومقدار ما في تلك الأطروحة من تهجم على حرمة الوحي الشريف، وإلصاق الأفهام المغلوطة به، على نحو افتقدت معه مقاصد الشريعة، واستباحت به تلك الفئات

تكفير عموم المسلمين، ثم رتبوا على التكفير تعمد الإضرار بهم.

فمقصودنا هو وضع تلك الأطروحة الفكرية، تحت مجهر الفحص العلمي، بغرض إزالة ما تم إلحاقه بالشرع من فهم مغلوط، ولو أن تلك الأطروحة عليها اسم أي شخص لوجب أن نقوم معها بنفس الدور النقدي؛ إذ المقصود هو غربلة الأفكار، وصيانة فهم القرآن من أي تأويل منحرف، أو فهم مغلوط.

* وإذا كان يجوز لنا أن نستنبط من النص معنى يخصصه أو يعممه أو يقيده، فإنه لا يجوز لأحد أبدا أن يستنبط من النص معنى يفسده، ويكفر حملته، ويكر على الوحي الشريف ومقاصده بالبطلان.

* ولقد كان على رأس أطروحاته فكرة الحاكمية، والتي أخذها في الحقيقة من فكر أبي الأعلى المودودي، إلا أن سيد قطب قد طور تلك النظرية، وسخر لها قلمه وبيانه، فصنع منها نظرية متكاملة الأركان، تنضح بالتكفير، قال القرضاوي في مذكراته: (هذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب ونسميها مرحلة الثورة الإسلامية، الثورة على الحكومات الإسلامية، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل المجتمعات الإسلامية، أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكون هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذى ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة)[1].

---

(١) ابن القرية والكتاب /٣/٥٦/، ط: دار الشروق، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

ويقول بعد ذلك: (وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب هو ركونه إلى فكرة التكفير والتوسع فيه)[1].

* وقد بنى سيد قطب فكرة الحاكمية على فهم مغلوط لقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

حيث ذهب تبعا للمودودي إلى تكفير الشخص بعدم إجراء الأحكام الشرعية، وإن كان معتقدا أنها حق، وأنها وحي من الله، حتى وإن كان لم يتمكن من إجرائها لعارض من العوارض.

وهذا مذهب غريب جدا، في غاية التشدد والتضييق، يسارع في التكفير، ويتوسع فيه، وهو متفرع عن فكرة أخرى عنده، وهي جعل الحاكمية من أصول الإيمان، فزاد في أمور الاعتقاد أمرا من عنده، ثم كفر الناس بعدم وجوده عندهم، وهذا بعينه مذهب الخوارج.

ومذهب علماء المسلمين جيلا من وراء جيل، من طبقة الصحابة رضي الله عنهم على خلاف ذلك، وقد ذهب العلماء إلى عدد من الأقوال والتوجهات في فهم الآية الكريمة، أرجحها أن الآية تعني من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا كون تلك الأحكام وحيا وحقا، فهذا كفر دون شك، أما من أقر أنها حق ووحي وأمر إلهي لكنه تعذر عليه تطبيقها فهذا ليس بكافر.

قال الإمام فخر الدين الرازي في: (التفسير الكبير): (قال عكرمة:

(١) ابن القرية والكتاب /٣/٥٨/.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.



وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[1] إنما يتناول من أنكر بقلبه، وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله، وأقر بلسانه كونه حكم الله، إلا أنه أتى بما يضاده، فهو حاكم بما أنزل الله، ولكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية، وهذا هو الجواب الصحيح)[2].

قال حجة الإسلام الغزالي في: (المستصفى): (قوله تعالى بعد ذكر التوراة وأحكامها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]، قلنا: المراد به: ومن لم يحكم بما أنزل الله مكذبا به، وجاحدا له)[4].

وقال الإمام أبو محمد ابن عطية الأندلسي في (المحرر الوجيز): (لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم، بل لفظ مشترك، يقع كثيرا للخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[5]، وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحق في أمر بكفرة بوجه)[6].

* والذي يتصفح كلام الأئمة، يجد أن ابن مسعود، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وإبراهيم النخعي، والسدي، والضحاك، وأبا صالح، وأبا مجلز، وعكرمة، وقتادة، وعامرا، والشعبي، وعطاء، وطاووسا، ثم الإمام الطبري في: (جامع البيان)، وحجة الإسلام

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) التفسير الكبير /٦/٣٥/، ط: دار الغد العربي، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٤) المستصفى /ص١٦٨/،.

(٥) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٦) المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز /٢/٩٥/.

الغزالي في (المستصفى)، وابن عطية في (المحرر الوجيز)، والإمام الفخر الرازي في: (مفاتيح الغيب)، والقرطبي، وابن جزي في: (التسهيل)، وأبا حيان في: (البحر المحيط)، وابن كثير في: (تفسير القرآن العظيم)، والآلوسي في: (روح المعاني)، والطاهر بن عاشور في: (التحرير والتنوير)، والشيخ الشعراوي في تفسيره جميعا أطبقوا على فهم في الآية.

وفي المقابل يقول الأستاذ سيد قطب عن كل ذلك: (إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه)[1].

فجعل كلام أولئك الأئمة جميعا محاولة لتحريف الكلم عن مواضعه.

وعند التفتيش ما وجدنا لسيد قطب سلفا يسبقه إلى هذا الفهم التكفيري إلا الخوارج، قال الإمام الآجُرّي في: (الشريعة): (حدثنا أبو بكر ابن أبي داود، قال: حدثنا المثنى بن أحمد، قال: حدثنا عمرو بن خالد، قال: حدثنا ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير - في قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[2] - قال: أما المتشابهات فهُنَّ آيٌ في القرآن يتشابهن على الناس إذا قرأوهن، من أجل ذلك يضل من ضل ممن ادعى هذه الكلمة، كل فرقة يقرءون آية من القرآن ويزعمون أنها لهم أصابوا بها الهدى.

ومما يتبع الحرورية (اسم للخوارج) من المتشابه قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]، ويقرأون معها:

---

(١) في ظلال القرآن /٢/٨٩٨/، ط٤٠، دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧.
(٣) سورة المائدة، الآية ٤٤.



﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1]، فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه فقد أشرك، فهذه الأمة مشركون، فيخرجون فيفعلون ما رأيت، لأنهم يتأولون هذه الآية)[2].

* وسبب ذلك أن سيد قطب قد أعرض عن تجربة علماء الإسلام في فهم الوحي عبر تاريخ المسلمين، وتجاهل مناهج الفهم عندهم، بل جعل النتاج الفكري لأمة الإسلام ثقافة جاهلية، فقال: (حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيرا إسلاميا، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية)[3].

فعزل نفسه عن مناهج أهل العلم في فهم القرآن، وذهب يجهد نفسه في فهمه معتمدا على حدسه وحسه الشخصي، وتصوراته الخاصة، حتى قال في أوائل كتابه: (التصوير الفني في القرآن): (ودخلت المعاهد العلمية، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعت تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا، وا أسفاه، لقد طمست كل معالم الجمال فيه، فخلا من اللذة والتشويق، ترى هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق، أم أنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير؟ وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير، وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب، وأجد صوري المشوقة اللذيذة.. الخ)[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١.

(٢) الشريعة /ص٣٤١/، وانظر: الدر المنثور /٢/١٤٦/، والاعتصام /٢/١٨٣/.

(٣) معالم في الطريق /ص١٧ ـ ١٨/.

(٤) التصوير الفني في القرآن /ص٨/، ط١٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

فهذا نص خطير، يكشف عن منهجية الفهم والتحليل والتعامل مع النص القرآني، وأنه أعرض تماما عن جهود علماء الأمة عبر التاريخ في خدمة النص القرآني وفهمه، وجعل نتاجهم العلمي جاهليا، وصار يعول في فهمه للقرآن على ذلك الحس الجمالي المبهم المجمل، الذي كان يجده في أيام طفولته، دون المدارك العلمية الدقيقة المتقنة المحكمة التي تبلورت عند علماء الأمة عبر التاريخ للاستنباط من النص القرآني الجليل واستخراج معانيه الدقيقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

* والقاعدة هنا أن هناك إلحاحا من التيارات التكفيرية عبر الزمن على التأويل المنحرف لهذه الآية الكريمة، وأنهم خرجوا عبر تاريخ الأمة في موجات تكفيرية متعاقبة، تدور كلها حول الفهم المغلوط لهذه الآية، في مقابل إجماع علمي مستقر من أهل العلم عبر الأعصار على الفهم المستقر الصحيح لها، حتى روى الخطيب البغدادي في: (تاريخ بغداد) أن ابن أبي داود كان يقول: (أُدْخل رجلٌ من الخوارج على المأمون، فقال: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في كتاب الله تعالى، قال: وما هي؟ قال: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، فقال له المأمون: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم، قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأمة، قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض بإجماعهم في التأويل، قال:

(١) سورة النساء، الآية ٨٣.
(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين)[1].

* وقد حذر النبي ﷺ من هذا المسلك التكفيري أشد التحذير، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى رئيت بهجته عليه، وكان ردئا للإسلام، غيَّره إلى ما شاء الله، فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك، قال: قلت: يا نبي الله!! أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: بل الرامي»**.

رواه البزار في مسنده، وحسن الهيثمي سند البزار، وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى في مسنده، وقال ابن كثير عن سنده: (هذا إسناد جيد)، ورواه الطحاوي في: (شرح مشكل الآثار)، والهروي في: (ذم الكلام وأهله)، وابن عساكر في: (تبيين كذب المفتري).

وورد من حديث معاذ بن جبل، رواه الطبراني في مسند الشاميين، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ، وابن أبي عاصم في كتاب السنة، والهروي في ذم الكلام وأهله، وأبو القاسم الأصبهاني في الحجة.

وسيأتي مزيد شرح لهذا الحديث بعد صفحات.

* والأمة المحمدية لا تنحرف ولا تنجرف بكليتها إلى الكفر أبدا كما يتصوره سيد قطب وكما تتصوره التيارات والفرق الدينية المعاصرة التي تتبعه، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الأمة محفوظة من أن تتحول إلى الشرك والكفر، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث عقبة بن عامر أن

---

(١) تاريخ بغداد /١٠/١٨٦/، ط:، وتاريخ دمشق /٣٣/٣٠٦/، ط: دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري

رسول الله ﷺ قال: «**وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها**»[1]، حتى قال الإمام الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في: (التمهيد): (ومن خاف على أمة محمد ما لم يخفه عليها نبيها فقد جاء من التعسف بما لا يخفى)[2].

* فهذا نموذج واضح لانحراف العقول في فهم القرآن، وأنه عند افتقاد أدوات الفهم الصحيح للوحي، فإن العقول تلصق الأهواء والأفكار المنحرفة بكلام الله جل جلاله، وتحول دين الله من الرحمة والراحة، إلى إراقة الدماء، ويبقى واجب العلماء بحق، على مدى الأزمان، أن ينهضوا بواجب وقتهم، في بيان خطأ ما يتم إلصاقه بالوحي الشريف من فهم مغلوط، تنقية وصونا لدين الله من الأفهام البشرية الحائرة المتخبطة، ومسارعة إلى بيان المناهج السديدة في الفهم عن الله.

* * *

(١) صحيح البخاري /٥/٩٤/، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ط: جمعية المكنز الإسلامي، مصر، سنة ١٤٢١هـ (السلطانية).

(٢) التمهيد، لما في الموطأ من المعاني والأسانيد /٢/١٢١/.

مقارنة بين فهم سيد قطب للآية الكريمة في مقابل جماهير علماء الأمة،
من جيل الصحابة، مرورا بأئمة العلم،
انتهاءً إلى الإمام الشيخ محمد متولي الشعرواي

علماء الأمة في جانب	الفهم التكفيري في جانب آخر تماما
ابن مسعود، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وإبراهيم النخعي، والسدي، والضحاك، وأبو صالح، وأبو مجلز، وعكرمة، وقتادة، وعامر، والشعبي، وعطاء، وطاووس، وأبو رجاء العطاردي، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، ثم الإمام الطبري في: (جامع البيان)، وحجة الإسلام الغزالي في (المستصفى)، والبغوي في تفسيره، وابن الجوزي في (زاد المسير)، والإمام الفخر الرازي في: (مفاتيح الغيب)، والإمام القرطبي، وابن جزي في: (التسهيل)، وأبو حيان في: (البحر المحيط)، وابن كثير في: (تفسير القرآن العظيم)،	سيد قطب

والآلوسي في: (روح المعاني)، والطاهر بن عاشور في: (التحرير والتنوير)، والشيخ الشعراوي في تفسيره

* * *

(تعددت مناهج هؤلاء الأئمة في فهم الآية الكريمة، وأرجح الأقوال عندهم أنها واردة في معنى تشديد شأن المعصية، وأنها كفر دون كفر، لكن لم يذهب واحد منهم قط إلى مثل ذلك الفهم المتطرف التكفيري الذي ذهب إليه سيد قطب)

* * *

لم نجد أحدا قط سبق سيد قطب إلى فهمه التكفيري إلا ما رواه الإمام الآجُرّي في كتاب الشريعة من كلام سيدنا سعيد بن جبير أن الخوارج قرأوا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1]، ويقرأون معها: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه فقد أشرك، فهذه الأمة مشركون، فيخرجون فيفعلون ما رأيت.

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

تحذيرٌ نبويٌّ عجيبٌ
لرجلٍ من أهل القرآن، انتهى به الأمر تكفيريا يحمل السلاح ويريق الدماء

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى رئيت بهجته عليه، وكان ردئا للإسلام، غيَّره إلى ما شاء الله، فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك، قال: قلت: يا نبي الله!! أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: بل الرامي»**.

رواه البزار في مسنده، وحسن الهيثمي سند البزار، وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى في مسنده، وقال ابن كثير عن سنده: (هذا إسناد جيد)[1].

هذا حديث في غاية الأهمية، لأنه يصف لنا حالة عجيبة من المتحمسين للإسلام، حصلت لها أطوار وتحولات في غاية العجب، تبدأ

(١) مسند البزار /٧/٢٢٠/، ط: مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، سنة ١٤٠٩هـ، ومجمع الزوائد /١/١٧٨/، ط: دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ، وصحيح ابن حبان /١/٢٨١/، باب ذكر ما كان يتخوف صلى الله عليه وسلم على أمته جدال المنافق، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، وتفسير ابن كثير /٢/٢٦٦/، ط: دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠١هـ.

بالشغف بالقرآن والولع به، حتى تلوح أنوار عليه، وتنتهي به وقد وقع في التكفير، وحمل السلاح وأراق الدماء.

وقد وصف صلى الله عليه حال ذلك الرجل بثلاثة أوصاف:

○ **أولها:** أنه آتاه الله القرآن، فهو ليس بغريب عن القرآن، بل هو منسوب إليه، وقد اعتنى بالقرآن وخدمه، وحفظه، واشتهر به، فصار ظن الناس فيه حسنا، لشيوع خدمته للقرآن وعنايته به.

○ **ثانيها:** أنه رؤيت عليه بهجة القرآن، لأن القرآن نور، وله بهجة تخالط صاحبه، ولشدة ولع ذلك الرجل بالقرآن وكثرة تلاوته له، صار الناس يرون عليه أثرا من نورانية القرآن، فإن كل من خدم القرآن وأدمن تلاوته سرى نور القرآن إليه، ولمعت في وجهه مسحة من أنواره، فيزداد ظن الناس فيه، لما يرون عليه من بهجة القرآن.

○ **ثالثها:** أنه رجل شديد الحماسة لهذا الدين، حتى صار ردئا للإسلام، وحاميا له، ومنافحا عن حماه.

ثم من بعد كل هذا النشاط، الذي يترك لذلك الرجل صيتا حسنا في مجتمعه، ويشيع بينهم ظن حسن فيه، ومهما اختلف الناس في شأنه فإنهم لا يزالون يحفظون له حماسه للإسلام، وخدمته للقرآن، ومن هنا يبدأ الإشكال، وتحدث البلبلة، ويضطرب الناس بسبب ذلك الرجل اضطرابا هائلا.

فقد طرأ على الرجل تغير عجيب بعد ذلك، عبر عنه النبي ﷺ بقوله:

«**غيره إلى ما شاء الله**»، والتغيير ليس في ألفاظ القرآن وعباراته وحروفه، بل إن التغيير في فهمه وتأويله، لأن الرجل أقدم على ذلك، وتقحم وتهجم على حمى القرآن بالتأويلات الباطلة، اغترارا منه بكل ما سبق من جهود وتلاوة، فركن إلى حسن العناية وكمال التعلق بالقرآن، فظن أن هذا يكفيه في فهمه، فأقدم على ما لا يحسنه من الاستنباط والتأويل، فخرج بمجموعة من المفاهيم والأوهام والظلمات، والاستنتاجات والاستنباطات المنحرفة، وهو في كل ذلك فاقد لأدوات الفهم، ومناهج الاستنباط، ودوائر العلوم الخادمة لفهم القرآن، عاجز عن إدراك مقاصده، حتى جنح إلى التكفير، ورمى جاره المسلم بالشرك، ثم لم يكتف بذلك، حتى ادعى لنفسه الجهاد، وخرج على الناس بالسيف، وحمل السلاح وأراق الدماء، وكلما ناشده أحد أن يكف ازداد عنادا، لأنه توحد مع القرآن، وجعل التشكيك في فهمه تشكيكا في القرآن ذاته.

لكن ما هي مراحل تغييره لفهم القرآن، وكيف تدرج فيها رويدا رويدا، حتى انغمس في استنباط معان من القرآن، تهدم مقاصد القرآن أصلا، وهو لا يشعر بذلك؟

لقد تورط الرجل في أن تحول هو إلى صانع للمعرفة، قائم بالاستنباط، ينحت المفاهيم والنظريات من آيات القرآن، ولا قائد له سوى الحماسة والانفعال، فتولدت على يده مفاهيم ونظريات وقواعد، حافلة بتركيب الآيات بعضها ببعض على نحو مغلوط، فيخرج بنتائج في غاية البعد والغرابة، لكنه يستسيغها، لغياب خريطة العلوم والأدوات والمقاصد التي

يستعين بها العلماء بحق، فليس عنده معيار يقيس إليه فهمه، ويعرض عليه استنباطاته، بل إنه يدخل إلى القرآن بنظريات وأفهام، ثم يجهد على أن ينتزعها من القرآن عنوة، فيقوّل القرآن ما لم يقله، وينسب إليه نقيض قصده، ويلصق أفهامه الحائرة المترددة المضطربة بالوحي، مرتكبا في سبيل ذلك تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

كل ذلك والناس مضطربون فيه، وفي حيرة من أمره، ولا يتجاسرون على الجزم بانحرافه وخطئه، لما يعهدونه ويعرفونه من تاريخه الممتد في خدمة القرآن، وظهور بهجة القرآن عليه، وتاريخه في المنافحة عن الإسلام.

ولك أن تتخيل ما يشير إليه الحديث الشريف في فحوى الكلام وثناياه، من مقدار ما يقع بسبب ذلك الرجل من ضرر واختلال واضطراب للناس في شأنه، ما بين شخص أدرك خطورة تكفيره، فصار صدره موغرا من هذا التكفيري، ويرى أن سبب الخراب والدمار ليس هو انحراف الرجل، بل هو منهجه ذاته، فيجر الرجل إلى القرآن إساءة الظن به، حيث نقل الناس خطورة منهجه، وبشاعة عدوانه إلى القرآن ذاته، لشدة التصاقه بالقرآن.

وما بين شرائح من المجتمع لا تكاد تصدق أن يأتي انحراف الفهم في القرآن من هذا الرجل، مع شدة ما يعهدونه في تاريخه الممتد من خدمة القرآن، فيضطربون في تحديد موضع الخلل، ويبقون في حيرة وشتات.

وما بين شريحة تقف عند شدة إصراره هو على أنه الحق، وأنه أولى

الناس بالقرآن، فليس للخطأ سبيل عليه، فيلحدون بسببه، ويلصقون الخلل بدين الله ذاته.

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله!! إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موضع كان أشد غضبا منه يومئذ، ثم قال: يا أيها الناس!! إن منكم منفرين، فمن أمَّ الناس فليتجوز؛ فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة.

وروى البخاري أيضا من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي ﷺ، فشكا إليه معاذا، فقال النبي ﷺ: يا معاذ! أفتَّانٌ أنت؟ ثلاث مرار، فلولا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾[1]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾[2]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[3]؛ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة.

فهذه أحوال ووقائع حصلت في زمان النبوة، حصل فيها للناس اضطراب بسبب واحد من الأفاضل من الصحابة تحمس فأطال الصلاة، فأثقل على الناس، حتى تأخر الناس عن صلاة الفجر بسبب إطالته، أو ثقل

---

(١) سورة الأعلى.
(٢) سورة الشمس.
(٣) سورة الليل.

الأمر على رجل فانتحى وصلى لنفسه صلاة خفيفة وانصرف لشأنه، فتناوله المتحمسون وقالوا: منافق، كما في بقية طرق الحديث، فجاء الرجل يشكو، كل ذلك وسبب الشكوى ليس فسوقا ولا فجورا، بل حالة دينية زائدة، أوقعت في الناس اضطرابا، وفتنتهم، ونفرتهم.

فكيف كان تصرفه ﷺ، غضب حتى إنه ما رؤي غاضبا كمثل غضبه ذلك اليوم، ووصفهم بالمنفرين، ثم خاطب الصحابي الفاضل وعاتبه، وقال له: أفتان أنت؟ ثم شرع يشرع لهم معالم الاتزان والتيسير، التي لا توقع الناس في حيرة تنفرهم من دين الله، بحيث يلصقون حماسة الأشخاص بدين الله، فيثقل عليهم، فيصفهم هو بالنفاق ولا يراعي حالهم.

ولعل هذا أن يكشف لنا سر التعبير النبوي هنا بأن حالة ذلك الرجل القرآني التكفيري أنه هو الذي يتخوفه علينا ﷺ.

* * *

والخلاصة أن الإقدام على التكفير أمر خطير، وأن من تلبس بحال يدعي فيه القرآن والشرع، ويتحمس لدين الله تعالى بدون علم، فإنه أخطر ما يتخوفه النبي ﷺ على أمته، ويلتحق به أمر آخر، وهو تكفير الحكام والأمراء بما قد يقع منهم من تقصير أو جور:

ـ فعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «**ستكون أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا:**

أفلا نقاتلهم؟ قال: **لا ما صلوا**»، رواه مسلم في صحيحه[1].

ولذا فقد حذر العلماء تحذيرا شديدا من التكفير:

فقال الإمام الباقلاني: (ولا يكفر بقول ولا رأي إلا إذا أجمع المسلمون على أنه لا يوجد إلا من كافر، ويقوم دليل على ذلك)[2].

وقال ابن حزم رحمه الله: (والحق هو أن كل من ثبت له عقد الإسلام، فإنه لا يزول عنه إلا بنص أو إجماع، وأما بالدعوى والافتراء فلا)[3].

وقال الإمام أبو الفتح القشيري: (وهذا وعيد عظيمٌ لمن كفّر أحدًا من المسلمين وليسَ هو كذلك)[4].

وقال حجة الإسلام الغزالي في: (فيصل التفرقة، بين الإيمان والزندقة): (والذي ينبغي: الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلا؛ فإن استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك دم لمسلم واحد)[5].

وقال ابن الوزير اليمني: (وكم بين إخراج عوام فرق الإسلام

---

(١) صحيح مسلم /٣/١٤٨٠/، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) نقله الإمام التقي السبكي في الفتاوى /٢/٥٧٨/، ط: دار المعرفة، بيروت، (د ن).

(٣) الفصل، في الملل والأهواء والنحل /٣/١٣٨/، ط: مكتبة الخانجي، القاهرة.

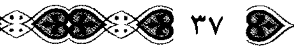
(٤) نقله الزركشي في كتاب: المنثور في القواعد /٣/٩١/، ط٣: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

(٥) نقله الزركشي في المنثور في القواعد /٣/٨٨/.

أجمعين، وجماهير العلماء المنتسبين إلى الإسلام من الملة الإسلامية، وتكثير العدد بهم، وبين إدخالهم في الإسلام ونصرته بهم وتكثير أهله، وتقوية أمره، فلا يحل الجهد في التفرق بتكلف التكفير لهم بالأدلة المعارَضة بما هو أقوى منها أو مثلها مما يجمع الكلمة، ويقوي الإسلام، ويحقن الدماء، ويسكن الدهماء حتى يتضح كفر المبتدع اتضاح الصبح الصادق، وتجتمع عليه الكلمة، وتحقق إليه الضرورة)[1].

* * *

(١) إيثار الحق على الخلق /ص٤٠٢/، ط٢: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٨٧م.



مناظرة ابن عباس رضي الله عنه للخوارج

في الفهم المغلوط لقوله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

وهي منهج لمناقشة التيارات الدينية المتطرفة في زماننا هذا

قال أبو زميل سماك بن الوليد الحنفي: حدثني ابن عباس قال: لما اجتمعت الخوارج في دارها، وهم ستة آلاف أو نحوها، قلت لعلي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين! أبرد بالصلاة لعلي ألقى هؤلاء القوم، فقال: إني أخافهم عليك! قال: قلت: كلا!

قال: فخرجت إليهم ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، ـ قال أبو زميل: وكان ابن عباس جميلا جهيرا ـ، قال: فأتيت القوم، قال: فلما نظروا إلي قالوا: مرحبا مرحبا يا ابن عباس، فما هذه الحلة؟!! قال قلت: وما تنكرون من ذلك، لقد رأيت على رسول الله ﷺ من أحسن الحلل، قال: ثم تلوت عليهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[1].

قالوا: فما جاء بك؟ قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ، ومن عند المهاجرين والأنصار، ولا أرى فيكم أحد منهم، وعليهم نزل القرآن فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

أحد، لأبلغكم ما يقولون وأبلغهم ما تقولون، فما تنقمون من علي، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره؟

قال: فأقبل بعضهم على بعض وقالوا: لا تكلموه؛ فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1]، وقال: بعضهم وما يمنعنا من كلامه وهو ابن عم رسول الله ﷺ ويدعونا إلى كتاب الله؟

قال: قالوا: ننقم عليه خلال ثلاث، قال: قلت: وما هن؟ قالوا:

أما إحداهن: فإنه حكم الرجال في أمر الله وما للرجال ولحكم الله؟

وأما الثانية: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، فإن كان الذي قاتل قد حل قتالهم فقد حل سبيهم، وإن لم يكن حل سبيهم ما حل قتالهم.

وأما الثالثة: فإنه محا اسمه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فإنه أمير المشركين.

قال: قلت لهم: هل غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا.

قال: قلت: أرأيتم إن خرجت إليكم من هذا من كتاب الله وسنة رسوله، أراجعون أنتم؟ قالوا: وما يمنعنا؟

قال: قلت: أما قولكم: «إنه حكم الرجال في أمر الله وما للرجال ولحكم الله»، فإني سمعت الله يقول في كتابه: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2]، في ثمن صيد أرنب أو نحوه يكون قيمته ربع درهم فوض الله

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩٥.



الحكم فيه إلى الرجال ولو شاء أن يحكم لحكم، وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1]، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قال: قلت: وأما قولكم: «قاتل ولم يسب ولم يغنم»؛ فإنه قاتل أمكم، وقال الله: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[2]، فإن زعمتم أنها ليس بأمكم فقد كفرتم وإن زعمتم أنها أمكم فما حل سباؤها، فأنتم بين ضلالتين أخرجت من هذه قالوا: نعم.

قال: وأما قولكم: «فإنه محا اسمه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فإنه أمير المشركين»، فإني أنبئكم بذلك عن من ترضون، وأراكم قد منعتموه، أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وقد جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو، فقال: يا علي! اكتب «هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو»، فقالوا: لو نعلم بأنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال: اللهم إنك تعلم أني رسولك، قال: ثم أخذ الصحيفة فنحاها بيده، ثم قال: يا علي! اكتب «هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو»، فو الله ما أخرجه الله بذلك من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم)[3].

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين /٤/٢٠٢/ ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، وسنن النسائي الكبرى /٥/١٦٥/، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، وتاريخ دمشق /٤٢/٤٦٣/، ط: دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٥م،=

○ **القضية الأولى**: أن ابن عباس رضي الله عنه سعى إليهم، ولم يتنظر أن يسألوا، مما يفيدنا في زمننا هذا أن يكون في مؤسساتنا مرصد يتابع عن كثب كل ما يطرأ عندنا من تيارات فكرية، أو أطروحات فلسفية، أو قضايا مثارة، مع دوام التحديث والمتابعة، ثم من بعد الرصد يأتي اعتصار الأفكار والمقولات الرئيسية التي تتأسس عليها تلك الأطروحة الفكرية، ثم بيان وجوه مناقشتها وتفنيدها أو التفاعل معها، ثم إيصال هذا النقد العلمي إلى ذلك التيار ورجاله.

* * *

○ **القضية الثانية**: لجأ ابن عباس رضي الله عنه إلى مدخل عجيب في مناقشتهم، حيث ذهب أولا فلبس حلتين من أجود حلل اليمن، فما موقع هذا التصرف وما موضعه وما محله من خريطة مناقشته لهم في الفكر، وما الباعث لابن عباس على هذا التصرف.

والجواب أنه رضي الله عنه أراد أن يلفت نظرهم، ويحرك عندهم الفكر، ويستفز فيهم النظر، إلى غياب جماليات الهدي النبوي، وافتقاد شمائله، التي تعين على فهم أحكامه وفقهه وإدراك مقاصده، وعندما يغيب حس الجمال، وتذوق الاتساق والانسجام في ظاهر الأمر في الملبس والمأكل، فإنه سيغيب بالتدريج عن منهج التفكير، وطريقة الفهم والنظر، فينتج الذهن فكرا مشوها، خاليا من الاتساق، مفتقدا لروح التشريع ومقاصده العليا،

= والأحاديث المختارة /١٠/٤١٣/، ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، سنة ١٤١٠هـ.

يترك عند الناس صورة ذهنية مشوهة، ونظير هذا قول أصحاب الكهف: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[1]، فما داعي التوقف عند الأزكى والأنظف والأرقى، وهم في حال بعث من رقاد استمر ثلاثمائة سنة وتسع سنوات، إلا أنهم جبلوا على الأزكى والأرقى في المطعم والملبس، مما فاض به وجدانهم وعقلهم من شهود الاتساق والرحمة والكمال في المنهج وأدواته وعلومه ومسائله ومقاصده.

ولقد أصاب هذا المدخل من ابن عباس ﵄، فاستفزهم، وحركهم، واستوقفهم، حتى سألوا بالفعل، (قال: فلما نظروا إلي قالوا: مرحبا مرحبا يا ابن عباس، فما هذه الحلة؟!! قال قلت: وما تنكرون من ذلك، لقد رأيت على رسول الله ﷺ من أحسن الحلل، قال: ثم تلوت عليهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[2].

فتحقق بعد نظر ابن عباس، وحرك عندهم ملكة البحث والتوقف والنظر، ولفت نظرهم بلطف إلى أنهم خرجوا وكفروا واتخذوا موقفا عنيفا، وزعموا أنفسهم أنصار الشرع، وأنهم أحق وأعرف به من علي بن أبي طالب والصحابة، في حين أنهم متحجرون عند مسائل معدودة لقلة العلم، وغياب الهدي النبوي بمنظومته المتكاملة، وأن الإدراك والإلمام بمكونات الهدي النبوي في حسن الظاهر، وجمال الهيئة، له أثر مؤكد على طريقة الفكر.

وهذا واقع بعينه عند التيارات المتطرفة في زماننا هذا، فما زالوا

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

يخرجون على الناس بهيئات خشنة، فيها رثاثة، صادمة للنظر، وهم يتصورون أن هذا هو الهدي النبوي، فينعكس هذا بلا شك على طريقة فهمهم للشرع، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: (وما تنكرون من ذلك، لقد رأيت على رسول الله ﷺ من أحسن الحلل، قال: ثم تلوت عليهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[1].

* * *

○ **القضية الثالثة:** أنه شرع معهم في التذكير بمواضع القوة في منهجه، ومواضع النقص والخلل والعوز في منهجهم، فقال: (جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ، ومن عند المهاجرين والأنصار، ولا أرى فيكم أحد منهم، وعليهم نزل القرآن فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد).

فهو هنا يذكر بمواطن الضعف في منهجهم، حتى يقفوا عن قرب على مقدار ما هو واقع عندهم من الفاقة والافتقار في أدوات المعرفة، مما يرجع بالسلب حتما على دقة نتائجهم واستنباطهم، فقد ذكرهم بأن الطرف الآخر الذي يخالفونه ويكفرونه مشتمل على مكونات معرفية جليلة، حيث إنه قد اجتمع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه من ضمانات صواب مسلكه، وترجيح كفته، ما ليس عندكم يا معشر الخوارج، وذلك من خلال أمور:

ـ **أولها:** أنه قد اجتمع حوله أصحاب رسول الله ﷺ، فهذا مجمع

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

علمي جليل موقر، محيط بعلي بن أبي طالب ﷺ.

ـ **ثانيها**: «وفيهم نزل القرآن ثانيا»، فشهدوا مواقع نزوله، وعلموا مقاصده، وتمرسوا بطرائق تنزيله على الواقع، وورثوا مسالك فهمه، ومفاتيح خزائن معارفه، مما قد تشربوه من الجناب النبوي الموقر.

ـ **ثالثها**: «وهم أعلم الناس بتأويله ثالثا»، لما لهم من السبق في الإحاطة بأسرار اللسان العربي، وشرف الصحبة النبوية، والبصر بمقاصد الشرع الشريف، والحرص والأمانة على حسن تأويله وتنزيله على أحسن محامله، مع الغيرة على القرآن من أن يُحمل على ما لا يليق به من المعاني.

ـ **رابعها**: أنه ليس فيكم منهم أحد، فأنتم لا ترجعون إلى رأي فقيه يُعتدُّ بخلافه، بل تنطلقون من حماسة مشبوبة، فاقدة لأدوات المعرفة، مع فهم غاضب، وتفسير منفعل، حملكم على عدم التبصر بأسباب رجحان الفهم عند الطرف المقابل لكم، وظننتم في أنفسكم أهلية امتلاك الحقيقة، بل أهلية احتكارها دون من هو أكثر إحكاما لأدواتها.

فكم في هذه اللفتة من ابن عباس ﷺ من الدقة، وعمق المُدْرك، في المداخل التي يمكن من خلالها تفكيك فكر التكفير والتطرف، وحسن تبصيرهم بأسباب وقوع الخطأ عندهم.

* * *

○ **القضية الرابعة:** تحديث المعرفة حيث أنه رضي الله عنه سعى إليهم، وبادر بمناقشتهم، ولم ينتظر أن يطلبوا رأيا، أو أن يسأله الناس عنهم، مما يدل على دوام الرصد والمتابعة من الهيئة العلمية في الأمة لكل ما يطرأ من أطروحات وتيارات فكرية، وعدم التقاعس أو التأخر عن وضع أطروحتهم في ميزان العلم.

ويكشف لنا ذلك أيضا عن عدم الاكتفاء بتخطئتهم في التطبيقات والتصرفات، بل سعى إلى الكشف عن المكنون الفكري المستتر وراء التصرفات، والذي تنبع منه تطبيقاتهم العدوانية الدموية.

فهذا مَعْلَمٌ مهم من معالم قيام العلماء برصد أطروحات زمانهم، وملاحقتها، وتتبعها، وعدم الوقوف عند إنكار النتائج، بل الغوص على المعاقد الفكرية، ووضعها تحت المجهر، والنظر في مدى استيفائها لشروط البحث العلمي، أو افتقادها لذلك.

* * *

○ **القضية الخامسة:** أن ابن عباس رضي الله عنه تعرض لمدخل جليل، ألا وهو حصر المقولات المركزية، التي تنبني عليها نظريتهم، وتتشيد على أساسها فكرتهم، ثم استوثق منهم أن هذه المقولات الثلاث هي التي عليها المعول عندهم، حتى إنه سألهم بعد تصريحهم بالمسائل الثلاث محل النظر: فقال: (قلت لهم: هل غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا)، فبدأ رضي الله عنه أولا بتثبيت المسائل المبحوثة، حتى ينضبط محل النظر والمناقشة، ثم ثبت

معهم حصرها، حتى لا ينتشر النظر وينفرط عقد المحاجة، ثم قرر قولهم في كل مسألة على نحو أمين يطابق مرادهم، ثم يجعل يضع قولهم على ميزان العلم، ويبرز لهم الفهم الصحيح، الكاشف عما في فهمهم من عوج.

والمقصود هو هذا الإجراء الدقيق، والذي هو اعتصر هذا التيار الفكري في مقولات محددة، وأفكار رئيسية كبرى، تطابق مرادهم، وينضبط معها النقاش.

وهذا هو المنهج الذي أقام المتكلمون عليه بعد ذلك علما جليلا، من العلوم المساعدة للمتكلم، ألا وهو علم مقالات الفرق، كما برز عند الإمام أبي الحسن الأشعري في (مقالات الإسلاميين)، وله أيضا: (مقالات الملحدين)، لكن لم يصل مخطوطه إلينا، وكما برز عند حجة الإسلام الغزالي في: (مقاصد الفلاسفة)، وهو توصيف محض، وتلخيص أمين لمقولات الطوائف والفرق الفلسفية، لم يشتغل فيه بالرد والتفنيد، بل قصد إلى حصر مقولاتهم، وضبطها، وتلخيصها، واعتصارها من بين ثنايا الاستدلالات والبراهين والإيرادات والمناقشات، حتى لا يدور النقاش في جزئيات لا تنحصر، بل يرقى إلى المعاقد والأصول، وكما برز ذلك عند الإمام الرازي في (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) وغير ذلك من كتب هذا الفن.

وكان الغرض منه عندهم، أن يتم في كل جيل، تحديث ما تحت أيدينا، من مقولات كل فرقة، وملاحقة ما يطرأ من الفرق، أو ما يستجد على مقولات الفرقة القائمة من قبل، من استحداث حجة، أو زيادة فكرة،

حتى يظل بين أيدينا سجل دقيق، وملخص أمين، مطابق لما تقصده كل فرقة، وكان هذا العلم، علم المقالات، من جملة العلوم المساعدة، التي يستعين بها المتكلم على تحقيق غرضه ومقصوده، حتى يتهيأ له إجراء قواعده الكلامية وعمله النقدي على مادة ثابتة ومحررة.

وكل ذلك منهج عريق، سبق إليه ابن عباس رضي الله كما رأيناه، ولابد من إحياء هذه المنظومة المتكاملة من دوائر العلوم في زماننا هذا، فلابد من مرصد دقيق، لمقالات الفرق الإسلامية المعاصرة، يحصر كتبهم ونتاجهم الفكري، ويعتصره حتى يستخلص منه المقالات الكبرى، ووجوه الاستدلال، التي بنوا عليها تطبيقاتهم، والتي هي مدخلهم إلى العقول.

* * *

○ **القضية السابعة:** القضية المركزية التي انطلقوا منها هي قضية الحاكمية، وهي أيضا القضية المركزية التي انطلقت منها التيارات المتطرفة في زماننا، مما يدل على أننا أمام منهج فكري واحد، له نفس السمات والخصائص والمقالات، لكنه يظهر في كل زمن باسم وهيئة، تتبنى نفس الفكرة.

وقد سلك ابن عباس ﷺ في نقاشهم مسلكا رصينا عجيبا، إذ كشف لهم عن منهجية الاستنباط من القرآن الكريم، وأنهم اقتطعوا منه لفظة أو كلمة أو آية أو قضية، وما صبروا على جمع بقية الآيات المتعلقة بنفس القضية، والتي إذا اجتمعت في صعيد واحد، مع البصر بكيفية تركيب العام والخاص، والمطلق والمقيد، مع البصر بدلالات الألفاظ ومقاصد الشريعة،

فحينئذ تظهر الدلالة القرآنية، ونكون قد استخرجنا من القرآن وجها من الفهم قصده القرآن وأراده، وأنهم تعجلوا وما صبروا، فلما أن أجرى ابن عباس مقتضى المنهج أمام أعينهم، وبين لهم مقدار غلطهم في الفهم، لافتقاد منهجه وأدواته، لم يجدوا عندهم مستندا لموقفهم من التكفير.

فرضي الله عن ابن عباس، وجزاه عنا خير الجزاء، فقد أصَّل لنا أصولا، وترك لنا منهجا، في تفكيك فكر التطرف، والقيام بمقتضى العلم، والغير على القرآن من أن ينسب الناس له فهما مغلوطا، لا باعث له سوى الحماس الخالي من أدوات صناعة المعرفة.

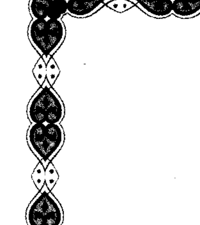
** ** **



(٢)

مفهوم الجاهلية وانقطاع الدين وحتمية الصدام





الجاهلية وحتمية الصدام

تتكون نظرية الجاهلية عند سيد قطب من عدد من المسائل، حصل له فيها خلط شديد، أنتج عددا من المفاهيم الملتبسة، التي انتهى منها إلى الحكم على أهل عصره جميعا بالجاهلية التي تعني التكفير.

ولقد أولع سيد قطب بنظرية الجاهلية، ولهج بها، وكررها في كتابه: (ظلال القرآن) على نحو بالغ، حتى لقد وردت كلمة الجاهلية في كتاب الظلال ألفا وسبعمائة وأربعين مرة (١٧٤٠)، ولقد أحصيت لها في صفحة واحدة أنه كررها تسع مرات، في حين وردت كلمة نور في كتاب الظلال أربعمائة وثلاثين مرة تقريبا (٤٣٥)، وهذا مؤشر مبدأي، ربما لا يدل على شيء، لكن لا يمكن تجاهل دلالته على شدة الحضور والإلحاح الذي كانت تمثله فكرة الجاهلية في عقل الرجل وأطروحته وتصوره.

حيث خلط بين اعتقاد انفراد الله تعالى بالحكم للبشر، وبين جريان الأحكام الفقهية في الواقع، وجريان أحكام الفقه في الواقع من قبيل خطاب التكليف، المرتبط بخطاب الوضع، بحيث يتوقف الأمر فيه على تفقد الأسباب والشروط والموانع، فتحويل هذا الأمر إلى الاعتقاد، وجعل التقصير في إجراء الأحكام قادحا في الاعتقاد وسببا للتكفير: خطأ عظيم تورط فيه سيد قطب، وجعله يعتقد عددا من الأمور العجيبة، منها أنه أخطأ

بالزيادة في أصول الإيمان؛ إذ أدخل العمل والفروع في الاعتقاد، وهذا قول الخوارج الذين جعلوا العمل شطرا من الإيمان، كالاعتقاد سواء بسواء، فكفروا بالذنب، ومنها أنه ذهب إلى انقطاع وجود هذا الدين، ومنها أنه ذهب إلى حتمية الصدام بين الفئة المؤمنة ـ على حد تعبيره ـ وبين غيرها.

وإليك التفصيل:

١ ـ الخلط بين الاعتقاديات والفروع، قال في: (ظلال القرآن): (إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة، وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة، كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة)[١].

وهذا خطأ شديد، لأن إدخال الأخلاق في أمور الاعتقاد ليس بصحيح، ويؤدي به حتما إلى تكفير من يقصر في شيء من أمور الأخلاق، واعتقاد أهل السنة والجماعة أن الاعتقاد قلبي، وأن العمل خارج عن ماهيته، وهذا الخلط الغريب من سيد قطب بين الاعتقادي والعملي أدى به إلى التورط بأن زاد في أصول الإيمان.

٢ ـ الزيادة في أصول الدين: حيث خلط بين اعتقاد إفراد الله تعالى بالحاكمية، وبين إجراء الفروع الفقهية في الواقع، وابتكر شيئا سماه توحيد الحاكمية، ويقابله عنده شرك الحاكمية، قال في: (ظلال القرآن): (وقضية التشريع هي قضية الحاكمية. وقضية الحاكمية هي قضية الإيمان)[٢]، وقال أيضا: (ذلك

(١) في ظلال القرآن /٤/٢١١٤/، ط٤٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
(٢) في ظلال القرآن /٣/١٢٠٥/.

ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هي كذلك قضية الدين والعقيدة)[١].

وقال أيضا: (إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة، إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان، لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين)[٢].

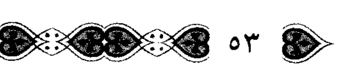
وقال أيضا: (ولم يكن الناس ـ فيما عدا أفراداً معدودة في فترات قصيرة ـ ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله أَلبتة، إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله)[٣].

فهو هنا جعل الاتباع وأمور الفقه والعمل مساوية لأمور الاعتقاد، وأطلق الشرك والتكفير على المقصر فيهما، وهذا خطأ فادح منه.

وقال أيضا: (والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام ـ على مدار التاريخ البشري ـ هي قاعدة: «شهادة أن لا إله إلا الله»، أي إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، إفراده بها اعتقاداً في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة، فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم)[٤].

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٢٣٥/.
(٢) في ظلال القرآن /٣/١٩٠٢/.
(٣) في ظلال القرآن /٣/١٥٥٥/.
(٤) في ظلال القرآن /٣/١٥٥٦/.



فهو هنا لا يجعل لشهادة التوحيد قيمة، إلا إذا قارنها العمل وإقامة الشعائر، وهذا مخالف لمنهج عموم المسلمين، الذين جعلوا الاعتقاد الصحيح الموجود في القلب لا يتأثر بالعمل وفروع الفقه إلا على وجه الكمال والنقصان، ولم يجعلوا التقصير في فروع الفقه ناقضا لما يعتقده الإنسان من إفراد الحق جل جلاله بالألوهية والتسليم.

وقال أيضا: (والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية - في أي زمان وفي أي مكان - هم مشركون. لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله - مجرد اعتقاد - ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده، فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين - إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر، إفراد الله سبحانه بالحاكمية، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده.. وهذا وحده هو الإسلام)[١].

وقال أيضا: (فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة: إن لا إله إلا الله. وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله، ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله، والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة، فهو من ثَمَّ مزاولة لحق الألوهية، يأباه المسلم إلا الله، والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم - العملي - كما هو الأمر في العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هي ألوهية الله، ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين! والتشريع هو مزاولة للألوهية، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية، ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين! من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٤٩٢/.

الاعتقادية، والاتكاء عليها على هذا النحو الذي نرى صورة منه في سياق هذه السورة المكية)[1].

وقال أيضا: (حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين ـ ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه ـ أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة، لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة، ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة، إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين! وهي هي القضية التي تحتشد لها سورة مكية ـ موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة، إنما موضوعها هو العقيدة ـ وتحشد لها كل هذه المؤثرات، وكل هذه التقريرات بينما هي تتصدى لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية. ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير، أصل الحاكمية، وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيقي.

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك. ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين، فليقرأوا القرآن كما أنزله الله وليأخذوا قول الله بجد: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2].

وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بالهم وبال الناس ببيان إن كان هذا القانون، أو هذا الإجراء، أو هذا القول، منطبقاً على شريعة الله أو غير منطبق، وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك.. كأن الإسلام كله قائم، فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات! هؤلاء المتحمسون الغيورون على هذا

(١) في ظلال القرآن /٣/١٢١١/.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

الدين، يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون. بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة، إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة، إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية. شهادة بأن هذا الدين قائم فيها، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات. بينما الدين كله متوقف عن «الوجود» أصلا، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد.

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين)(١).

فهو هنا يجعل الحاكمية لا تنفصل عن العقيدة، ويجعل المروق منها مروقا من الدين، فتسبب هذا في حكمه على عموم المسلمين بالكفر، بل يسويهم بعباد الأوثان، بسبب تقصير منهم في الأحكام الشرعية، رغم أنه لا يمس اعتقادهم الثابت في الإيمان بالله، وهذا السبب الذي جعل كتابه: (ظلال القرآن) ينضح بالتكفير كما عبر القرضاوي.

وقال أيضا: (يجب أن نذكر هذه الآية، وما قلناه عنها في الصفحات السابقة لندرك ماذا يعني السياق القرآني هنا بالشرك الذي ينهى عنه ابتداءً.. إنه الشرك في الاعتقاد، كما أنه الشرك في الحاكمية. فالسياق حاضر، والمناسبة فيه حاضرة، ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية، قد آتت ثمارها ـ مع الأسف ـ فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية أو لاستنكار انحلال أخلاقي أو لمخالفة من المخالفات القانونية. ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية، وموقعها من العقيدة الإسلامية! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر وهو قيام

(١) في ظلال القرآن /١٢١٦/٣/، ط٤٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

الحياة في غير التوحيد أي على غير إفراد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية)[1].

٣ ـ الجاهلية عنده ليست فترة تاريخية ماضية، بل هي منهج ممتد عبر الزمان قبل الإسلام وبعده، فهو يجوز رجوع الناس إلى الجاهلية الأولى بكل ما فيها من كفر وشرك واضطراب في القيم الاجتماعية.

واعتقاد عموم المسلمين هو أن أهل الإسلام لا يرجعون كفارا أبدا، وأن ما قد يقع في سلوكهم من مخالفة للشرع إنما هو من قبيل المعصية والمخالفة، لا من قبيل الكفر والارتداد، بل إن النبي ﷺ ينص على ذلك صراحة، فقد روى البخاري في صحيحه عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها**».

لكن سيد قطب يذهب إلى أن الأمة الإسلامية رجعت إلى الجاهلية التي كانت قبل وجود النبي ﷺ، بالكفر والشرك، فقال في: (ظلال القرآن): (إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ. إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر، وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء، ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر مثلهم: التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد)[2].

وقال أيضا: (والجاهلية ليست فترة تاريخية، إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوّماتها في وضع أو نظام، وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر)[3].

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٢٢٩/.
(٢) في ظلال القرآن /١/٥٥٧/، ط٤٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
(٣) في ظلال القرآن /٢/٨٩٠/.

وقال أيضا: (إن الجاهلية ـ في ضوء هذا النص ـ ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام)[١].

وقال أيضا: (إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها حالة ووضع يتكرر ـ في أشكال شتى ـ على مدار الزمان)[٢].

وأشد من ذلك قوله أيضا: (ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم)[٣].

فأي عدوان هذا على الأمة المحمدية المرحومة، وأي عدوان هذا على الدين الإسلامي كله، حيث يتصور أنه زال من الدنيا، وأن الجاهلية التي هي الكفر والشرك تعم الأرض كلها؟!

ويقول أيضا: (هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن «ينشئ» الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية، بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهجه الرباني)[٤].

ويقول أيضا: (وينظر فيرى الذين يقولون: إنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم، فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة

---

(١) في ظلال القرآن /٢/٩٠٤/.
(٢) في ظلال القرآن /٢/٩٩٠/.
(٣) في ظلال القرآن /٢/٩٣٣/.
(٤) في ظلال القرآن /٢/١٠١٧/.

كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء! وأن يبين لهم «الدين» الحق! وليس هذا هو الطريق، إن الجاهلية هي الجاهلية ـ ولو عمت أهل الأرض جميعا ـ وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين اللّه الحق، وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلّال ولا ضخامة الباطل، فالباطل ركام، وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة: أنهم ليسوا على شيء، كذلك ينبغي أن تستأنف، وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله ﷺ)[1].

٤ ـ توقف الدين عن الوجود وانقطاعه قبل زمن طويل، وأنه لم يعد له وجود في الأرض: وقد غرق سيد قطب في هذا التصور المظلم، الغارق في العقد النفسية، والذي وصل إلى تصور كئيب بأن الأرض كلها على الشرك، وأن الأمة المسلمة نقضت الإسلام، وأن الكون غارق في الجاهلية والكفر.

ولم يزل به هذا التصور الظلماني المغرق في الكآبة حتى صرح ذلك التصريح الغريب المذهل بأن هذا الدين قد انقطع وجوده قبل زمن.

فقال في كتاب: (العدالة الاجتماعية في الإسلام): (وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم ـ على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام ـ لا نرى لهذا الدين «وجودا»، إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر)[2].

وقال في كتاب: (معالم في الطريق): (إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد

(١) في ظلال القرآن /٢/١٩٤١/.

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام /ص١٨٣/ ط: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

انقطع منذ قرون كثيرة)[1].

وهذا عدوان صارخ على الأمة المحمدية، التي هي خير أمة أخرجت للناس، ورمي بالكفر والشرك، ومن قال هلك الناس فهو أهلكهم.

ويقول في: (ظلال القرآن): (لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا اللّه. فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان ونكصت عن لا إله إلا اللّه، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: «لا إله إلا اللّه» دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية «الحاكمية» التي يدعيها العباد لأنفسهم ـ وهي مرادف الألوهية ـ سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو كشعوب، فالأفراد، كالتشكيلات، كالشعوب، ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية، إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا اللّه، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد اللّه، وتخلص له الولاء.

البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: «لا إله إلا اللّه» بلا مدلول ولا واقع، وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد ـ من بعد ما تبين لهم الهدى ـ ومن بعد أن كانوا في دين اللّه! فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات)[2].

فهو هنا يصرح بأن الأمة كلها قد ارتدت، حتى أولئك الذين يرددون الأذان على المآذن، بل هم عنده أشد عذابا وأثقل إثما يوم القيامة!

ولا يستثني من ذلك أحدا، رغم أنه يرجع ليتكلم عن العصبة المؤمنة

---

(١) معالم في الطريق /ص٨/.

(٢) في ظلال القرآن /٢/١٠٥٧/.

فيقول: (وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة، إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض، نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات)[١].

ويقول: (إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض، من الجاهلية التي تغمر الأرض، هذا الموقف)[٢].

ويقول صالح سرية في: (رسالة الإيمان): (كل القوانين المخالفة للإسلام في الدولة فهي قوانين كفر، وكل من أعدّها أو ساهم في إعدادها أو جعلها تشريعات ملزمة، وكل من طبقها دون اعتراض عليها أو إنكارها فهو كافر. وعلى هذا فإن كل أعضاء اللجنة من المستشارين الذين وضعوا هذه التشريعات، وكل أعضاء البرلمان الذين صدقوا وكل مجلس الوزراء الذي قدمها والرئيس الذي وقّع عليها، والقضاة والنيابة ومحققو الشرطة والمباحث الذين حققوا بموجبها، إذا كانوا غير معترضين عليها وأخلصوا في عملهم بموجبها فهم كفار، وكل فرد من أفراد الشعب رضي بها أو لم ينكرها، أو وقف موقف اللامبالاة منها فهو كافر، لأن كل هؤلاء قد فضلوا شريعة البشر على شريعة الله وهذا كفر لأنهم اتخذوا آلهة غير الله وحكموا بغير ما أنزل الله).

٥ ـ الصدام مع أهل الأرض كلهم، حيث آلت كل الأمور السابقة بسيد قطب إلى تصور غريب، وهو أن علاقة المسلمين بغيرهم هي علاقة صدام وصراع، قال: (حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له، لأن مجرد وجوده، في صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية، لأن الحاكمية فيه لله وحده.

(١) في ظلال القرآن /٢/١٠٥٧/.
(٢) في ظلال القرآن /٢/١٠٥٧/.



إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله، القائمة على قاعدة العبودية للعباد، أن تحاول سحقه، دفاعا عن وجودها ذاته. ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه.

هذه ملابسة لا بد منها. تولد مع ميلاد الإسلام ذاته. وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا، ولا خيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا)[1].

ويقول أيضا: (ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقي عليها، وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله، أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها. وبذلك وحده يكون الدين كله لله)[2].

فهل قامت علاقة أمة الإسلام بغيرها من الأمم على الصراع والفناء، إذن فما الفارق بين فكر سيد قطب وبين نظرية صدام الحضارات عند صامويل هانتجتون، وأين هو من قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[4].

والخلاصة أن نظرية الجاهلية عنده قائمة على عدد من الافتراضات المغلوطة المشوشة، منها أنه زاد في أصول الإيمان، وخلط بين الاعتقاد

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٤٤١/.
(٢) في ظلال القرآن /٢/١٠٦١/.
(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧

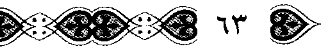
والعمل بالفروع الفقهية، وغاب عنه تماما نظرية عوارض الأهلية عند الأصوليين، وابتكر شيئا اسمه توحيد الحاكمية، ثم رتب على ذلك أن الجاهلية التي هي الكفر والشرك قد عمت الأرض كلها، وأن الأمة المحمدية ارتدت، وأن الدين قد توقف وجوده، وأن الصدام حتمي، وقد سبق نقل كلامه وعباراته باستفاضة، كل هذا يجعل من يمعن في قراءة كتاب: (ظلال القرآن) فإنه ينحرف مزاجه وتصوره، وينظر نظرة قاتمة جدا للأمة والعالم من حوله، ويمتلئ بفكرة الصدام والصراع، وينضح بالتكفير.

٦ ـ والعجيب أنه يدعو للتسامح مع المخالفين للإسلام في الاعتقاد، لكنه لا يرى التسامح أبدا مع المسلمين الذين يتجرأ هو ويكفرهم، إلى أن تطور الأمر عند داعش، فلم تتسامح مع أحد قط، بل قطعت الرقاب، وأعادت الرق والعبودية.

يقول في (ظلال القرآن): (إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهاراً نهاراً في العقيدة، ولكنه لا يتسامح هذا التسامح مع من يقولون الإسلام كلمة باللسان تكذبها الأفعال، لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحدون الله ويشهدون أن لا إله إلا الله. ثم يعترفون لغير الله بخاصية من خصائص الألوهية، كالحاكمية والتشريع للناس)[1].

وهذا التصور الغريب هو الذي جعل التيارات المتطرفة التكفيرية عبر تاريخها، تنكفئ على المسلمين، وتريق منهم الدماء، حتى تحولوا إلى حربة في نحور أهل الإسلام، وألحقوا بهم النكال، دون أن يكون لهم أدنى اشتغال بمخاطبة بقية الأمم والشعوب والحضارات من حولنا بما في هذا

(١) في ظلال القرآن /٢/٧٣٢/.



الدين من هداية وعلوم ومعارف وحضارة، فانعكس على يدهم مقصود الدين، وانعكست عندهم مقاصد الرسالة المحمدية، وبدلا من جعل أمة الإسلام أمة تقوم بين الأمم مقام هداية وبيان ودعوة إلى الله ونشر لمنظومة القيم النابعة من محاسن هذا الشرع الشريف، تحولوا إلى المسلمين، فنهشوا فيهم، وسفكوا دماءهم.

حتى قال الحافظ ابن كثير في: (البداية والنهاية) (وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد وسبق في قدره العظيم، وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1]، والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس، ويتحصنوا بها، ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم ممن هو علي رأيهم ومذهبهم من أهل البصرة وغيرها، فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها)[2].

** ** **

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٥.

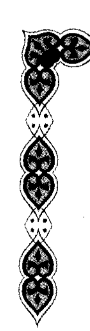
(٢) البداية والنهاية /٧/٢٨٦/.



(٣)

مفهوم
دار الكفر ودار الإسلام





قضية دار الكفر ودار الإسلام

قام الفقيه المسلم بتقسيم العالم إلى قسمين: ديار إسلام، وديار كفر، والباعث الذي كان حاضرا في ذهنه، وحمله على هذا التقسيم، هو البحث في نطاق سريان الأحكام الشرعية، بصورتها المستقرة، وأين هو ذلك النطاق الذي يتوقف عنده سريان الأحكام بصورتها الكاملة المستقرة المعهودة، ليبدأ نطاق مكاني آخر، تسري فيه الأحكام الفقهية الاستثنائية.

ويرجع ذلك إلى أن الإنسان المسلم حتما سوف ينتقل ويسافر ويحتك ويتفاعل مع العالم حوله، على اختلاف فلسفاته واعتقاداته، فإن كان ارتحاله وإقامته في وسط مسلم، تسري فيه الأحكام الشرعية في العبادات والعقود والمعاملات، فلا إشكال.

ومثال ذلك ابن بطوطة، فإنه ارتحل من طنجة، في أقصى الديار المغربية، إلى الصين، فكان يقوم بنشاطه البشري على اختلاف صوره في وسط مسلم، تسري فيه الأحكام بأريحية، ولا يحتاج إلى التفكير في الانتقال من الحكم المستقر إلى حكم استثنائي.

وفي المقابل فإن الإنسان المسلم سيتحرك حتما في آفاق العالم، وسوف ينتقل حتما إلى ديار وبلاد لغير المسلمين، فيحل ويرتحل، ويقيم ويتفاعل، ويبيع ويشتري، ويتزوج ويتوارث، وتنشأ حوله شبكة علاقات

التفاعل الاجتماعية صورها وأشكالها، فتنشأ أسئلة كثيرة حول كيفية قيامه بالأحكام الشرعية، في وسط غير مسلم، في نظمه وأعرافه وقوانينه وثقافته؟

فكان لابد من قيام الفقيه المسلم بالتأمل في ذلك النطاق الفارق بين دار الكفر ودار الإسلام، بغرض تقديم الأجوبة التفصيلية النابعة من الوحي الشريف، والتي تسعف المكلف والإنسان المسلم، في احتكاكه وتفاعله مع العالم من حوله.

فلابد من وجود مناطق وبلدان وأمم وشعوب في العالم، على غير الإسلام، ويعيش بينهم إنسان مسلم، ويمارس فيها حياته الطبيعية، ويقوم بالعقود، والبيوع، والحياة، والحركة، والبحث العلمي، والتعليم، فله حينئذ وضعية خاصة في معيشته، تقتضي أحكاما خاصة، ستختلف حتما عن تلك الأحكام المستقرة، السارية في ديار أهل الإسلام.

ولهذا نشأ الخلاف بين الفقهاء في تحديد المقومات والمحددات التي نستطيع بها التفرقة بين الدارين، للتفتيش عن الآثار المترتبة على مسار حياة الإنسان، وإسعافه بأجوبة الأسئلة الملحة التي ستشغل باله أثناء سفره وترحاله، ولم تكن لمجرد الترف بالفكرة في ذاتها.

وكان التعبير بدار الكفر ودار الإسلام هو التعبير المستقر حينئذ، ولم يكن قد اكتسب ذلك المدلول الصدامي الذي تداولته التيارات المتطرفة، والذي خلع على هذا التعبير ظلالا سلبية في الثقافة المعاصرة.

وكان الفقيه المسلم يدرك أن تقسيمه للعالم إلى دار إسلام ودار كفر

غرضه فقط هو استكشاف الفوارق بين الأحكام الفقهية المستقرة والأحكام الاستثنائية، وليس غرضه هو البحث في طبيعة العلاقة البينية بين الدارَيْنِ أو العالَمَيْن، لأن علاقة المسلمين بغير المسلمين علاقة تفاعلية واسعة، تعتمد على المدخل الفقهي، والمدخل القيمي الأخلاقي، ومدخل السنن الإلَهية المتعلقة بالاجتماع البشري، ومدخل الهداية، مما يجعل العلاقة البينية بين المسلمين وغيرهم واسعة، والأصل فيها هو الهداية والدعوة والأخلاق، وما سوى ذلك فهو أحوال عارضة وطارئة، تطرأ وتزول، ويبقى الأصل الذي هو الهداية والأخلاق.

قال الإمام الجليل تقي الدين السبكي في (الفتاوى): (فقد قال ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم**»، وعدم اختلاطهم بالمسلمين يبعدهم عن معرفة محاسن الإسلام، ألا ترى من الهجرة إلى زمن الحديبية لم يدخل في الإسلام إلا قليل، ومن الحديبية إلى الفتح دخل فيه نحو عشرة آلاف، لاختلاطهم بهم، للهدنة التي حصلت بينهم، فهذا هو السبب في مشروعية عقد الذمة)[1].

وهذه الفكرة تشبه بالضبط تقسيم الكرة الأرضية إلى مناطق، يتفاوت فيها التقسيم الزماني، بغرض معرفة الأحكام الفقهية المستقرة، والأحكام الاستثنائية.

ومعنى هذا وجود منطقة في العالم تستقر فيها علامات الأحكام الشرعية: وهي الأسباب، مثل انتظام طلوع الشمس وغروبها؛ لنعلم مواقيت

---

(١) فتاوى السبكي /٢/٤٠٤/، ط: دار الفكر بيروت.

الصلوات، وانتظام ظهور الهلال؛ لنعلم دخول رمضان وعدمه، وانتظام أوقات الشروق والغروب؛ لنعلم موعد إفطار الصائم.

فنجد أنه من خط عرض صفر إلى خط عرض ٤٢ تكون هذه العلامات الكونية مستقرة، ومن خط عرض ٤٢ إلى ٦٢ تكون علامات المواقيت وأسبابها مختلة، فتجد الليل فيها أربع أو خمس ساعات، والنهار هو ما تبقى من ساعات اليوم، كما أنه يطول ويقصر، فكيف يكون الصوم والإفطار للإنسان المسلم المقيم في هذه المنطقة؟ لابد من حكم فقهي يخصه، لأن هذا الشرع الشريف جاء متسعا وملبيا لاحتياجات الإنسان على اختلاف مناطق تواجده وسكناه على امتداد رقعة الكرة الأرضية.

كما نجد أنه من خط عرض ٦٢ درجة إلى القطب هي منطقة انعدام العلامة الشرعية، كما في الدول الإسكندنافية: كالسويد، والنرويج، فضلا عن سكان القطب؛ فإن ساكنها يري الشمس أمامه ٦ شهور معلقة في السماء ولا تغيب، إذن كيف يصلى الفجر؟ وكيف يُمسك ويُفطر في الصيام؟ فأصبحت هذه تُسمى منطقة انعدام العلامات الشرعية والشخص الذي تنعدم عنده العلامة الشرعية ماذا يفعل؟

فهذه هي الفلسفة والنظرية الكلية التي تجعل الفقيه يقسم العالم إلى منطقة تستقر فيها العلامات، ومنطقة تختل فيها العلامات، ومنطقة تنعدم فيها العلامة، وغرض الفقيه هو إسعاف الإنسان هناك حتى يستطيع العيش بالدين في هذه المنطقة.

نفس الوضع في النطاق المكاني الذي نستطيع أن نقول فيه إن هناك

منطقة في العالم يسري فيها الإسلام بحيث تجرى عندهم الأحكام الشرعية، وتوجد منطقة أخرى لغير أهل الإسلام، ويعيش فيها مسلمون يحتاجون إلى تقنين خاص، لسريان الأحكام الشرعية فيما بينهم وبين بعضهم، فبدأ السادة الأحناف مثلا يفكرون في جواز التعامل بالعقود الفاسدة في ديار الكفر وفى جواز التوارث بينهم من عدمه.

وبالسؤال عن الفلسفة التي كانت داخل عقل الإمام أبي حنيفة، وأئمة مذهبه من بعده كالإمام السرخسي صاحب كتاب: (المبسوط)، والإمام الكاساني صاحب كتاب (بدائع الصنائع)، بالإضافة إلى الإمام الشافعي وأعيان مذهبه، وغيرهم من الفقهاء، نجد أنها هي بيان المساحة أو رسم الخريطة التي تستقر فيها الأحكام، ومعرفة النطاق الذي تختل فيه الأحكام، لنفكر في أنه كيف يستطيع الإنسان أن يعيش فيها وتسري الحياة باستصحاب أحكام الشريعة.

فالفلسفة الكبرى، التي أوجدت وحركت فكرة دار الإسلام ودار الكفر هي فلسفة الحياة، وليست فلسفة الموت والقتل والعداوة والصدام.

* * *

وتعالوا الآن لنرى كيف انحرفت التيارات المتطرفة في الثمانين عاما الماضية، فأخرجت قضية دار الكفر ودار الإسلام عن نطاقها، وانتزعتها عن سياقها، وانحرفت بها عن فلسفة الحياة إلى فلسفة الموت والدمار والدماء، حتى تحولت هذه الفكرة إلى باب شقاء على المسلمين والبشرية،

وجعلت الناس تسيء الظن بعقل الفقيه المسلم، بل وتسيء الظن بالإسلام نفسه.

لقد تحولت قضية (دار الكفر ودار الإسلام) عند سيد قطب ومن تأثر به، كصالح سرية في كتابه: (رسالة الإيمان)، وشكري مصطفى، ومحمد عبد السلام فرج في كتابه: (الفريضة الغائبة)، انتهاء بتنظيم داعش، إلى مفهوم مختل، وفلسفة مختلفة

قال في: (ظلال القرآن): (ينقسم العالم في نظر الإسلام وفي اعتبار المسلم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما:

الأول: «دار الإسلام» وتشمل كل بلد تطبق فيه أحكام الإسلام، وتحكمه شريعة الإسلام، سواء كان أهله كلهم مسلمين، أو كان أهله مسلمين وذميين. أو كان أهله كلهم ذميين ولكن حكامه مسلمون يطبقون فيه أحكام الإسلام، ويحكمونه بشريعة الإسلام أو كانوا مسلمين، أو مسلمين وذميين ولكن غلب على بلادهم حربيون، غير أن أهل البلد يطبقون أحكام الإسلام ويقضون بينهم حسب شريعة الإسلام، فالمدار كله في اعتبار بلد ما «دار إسلام» هو تطبيقه لأحكام الإسلام وحكمه بشريعة الإسلام.

الثاني: دار الحرب، وتشمل كل بلد لا تطبق فيه أحكام الإسلام، ولا يحكم بشريعة الإسلام، كائناً أهله ما كانوا، سواء قالوا: إنهم مسلمون، أو إنهم أهل كتاب، أو إنهم كفار. فالمدار كله في اعتبار بلد ما «دار حرب» هو عدم تطبيقه لأحكام الإسلام وعدم حكمه بشريعة الإسلام، وهو يعتبر «دار حرب» بالقياس للمسلم وللجماعة المسلمة.

والمجتمع المسلم هو المجتمع الذي يقوم في دار الإسلام بتعريفها ذاك.

وهذا المجتمع، القائم على منهج الله، المحكوم بشريعته، هو الذي يستحق أن تصان فيه الدماء، وتصان فيه الأموال ويصان فيه النظام العام وأن توقع على المخلين بأمنه،

المعتدين على الأرواح والأموال فيه العقوبات التي تنص عليها الشريعة الإسلامية، في هذا الدرس وفي سواه.. ذلك أنه مجتمع رفيع فاضل ومجتمع متحرر عادل ومجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل وضمانات الكفاية لكل قادر ولكل عاجز ومجتمع تتوافر فيه الحوافز على الخير وتقل فيه الحوافز على الشر من جميع الوجوه. فمن حقه إذن على كل من يعيش فيه أن يرعى هذه النعمة التي يسبغها عليه النظام وأن يرعى حقوق الآخرين كلها من أرواح وأموال وأعراض وأخلاق وأن يحافظ على سلامة «دار الإسلام» التي يعيش فيها آمناً سالماً غانماً مكفول الحقوق جميعاً، معترفاً له بكل خصائصه الإنسانية، وبكل حقوقه الاجتماعية ـ بل مكلفاً بحماية هذه الخصائص والحقوق ـ فمن خرج بعد ذلك كله على نظام هذه الدار ـ دار الإسلام ـ فهو معتد أثيم شرير يستحق أن يؤخذ على يده بأشد العقوبات مع توفير كل الضمانات له في أن لا يؤخذ بالظن، وأن تدرأ عنه الحدود بالشبهات.

فأما «دار الحرب» بتعريفها ذاك، فليس من حقها ولا من حق أهلها أن يتمتعوا بما توفره عقوبات الشريعة الإسلامية من ضمانات، لأنها ابتداء لا تطبق شريعة الإسلام، ولا تعترف بحاكمية الإسلام، وهي ـ بالنسبة للمسلمين (الذين يعيشون في دار الإسلام ويطبقون على حياتهم شريعة الإسلام) ـ ليست حمى.

فأرواحها وأموالها مباحة لا حرمة لها عند الإسلام ـ إلا بعهد من المسلمين حين تقوم بينها وبين دار الإسلام المعاهدات ـ كذلك توفر الشريعة هذه الضمانات كلها للأفراد الحربيين (القادمين من دار الحرب) إذا دخلوا دار الإسلام بعهد أمان مدة هذا العهد وفي حدود «دار الإسلام» التي تدخل في سلطان الحاكم المسلم (والحاكم المسلم هو الذي يطبق شريعة الإسلام)[1].

وهذا الكلام في غاية الخطورة، وتنبع منه كل تطبيقات التنظيمات التكفيرية المتطرفة، التي صارت شوكة في ظهر المسلمين، وأراقت دمائهم، وانكفأت على أهل الإسلام فقط، تكفرهم وتقتلهم، وكل تطبيقات

(١) في ظلال القرآن /٢/٨٧٣/.



تنظيم داعش، وتنظيم القاعدة، وغيرها من التنظيمات تنبع من هذا النص وأشباهه.

حيث يذهب سيد قطب أن العالم من حولنا دار إسلام ودار كفر ولا ثالث لهما، فلا مجال عنده لوجود مدخل آخر يتفاعل به أهل الإسلام مع غيرهم.

ثم إن دار الكفر عنده هي عموم دول المسلمين بعد أن اعتدى عليهم بالتكفير، وجعلهم أهل جاهلية، تلك الجاهلية التي تعني عنده الكفر والردة.

فلا يمكن وجود دار الإسلام عنده إلا بأن تنحاز فئة في منطقة أو إقليم وتدعي أنها هي دار الإسلام دون غيرها من بلدان المسلمين.

ثم إن العلاقة البينية القائمة بين هذه الفئة التي سمت نفسها دار الإسلام، وبين بقية ديار الكفر ـ التي تهجم هو عليها وكفرها ـ هي الحرب المستمرة التي لا هوادة فيها، ودار الإسلام في نظره هي التي تنعم بالأمان، وهو وحده الذي تصان فيه الدماء والأموال والنظام العام.

وأما دار الحرب (والتي هي هنا عموم بلاد المسلمين بعد أن كفرهم هو وجعلهم أهل جاهلية) فليس من حقها ولا من حق أهلها أن يتمتعوا بضمانات الأمان، لأنها بالنسبة لأهل دار الإسلام ليست حمى وأرواحها مباحة!!

فهذا التصور المظلم المعقد المعذب نفسيا، المفعم بالتشنج والعذاب

والأسى، لو جمعنا مفرداته ومكوناته وتم تطبيقها على الأرض لوجدنا داعش قد تجسدت أمامنا كاملة غير منقوصة، أو تنظيم القاعدة، أو غيرها من التنظيمات الإرهابية الإجرامية.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: **(ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)**(١).

فكيف يا رسول الله بمن خرج على أمتك، فكفرهم، ورماهم بالشرك، واستعلى عليهم، وجعل فئة منهم تفارق مجموعهم، وتضرب برهم وفاجرهم، ولا تتحاشى من مؤمنهم لأنها كفرته، ونقضت العهود والمواثيق، فلم تف لذي عهد بعهده، ثم هي تدعي أنها وحدها أهل الإسلام، وأن دينك وشرعك الذي جاء رحمة للعالمين قد صار على يدهم عذابا للعالمين وشقاء لهم.

قال في: (ظلال القرآن): (حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له، لأن مجرد وجوده، في صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية، لأن الحاكمية فيه لله وحده.

إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله، القائمة على قاعدة العبودية للعباد، أن تحاول سحقه، دفاعا عن وجودها ذاته. ولا

---

(١) صحيح مسلم /٦/٢١/، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ط: دار النوادر، دمشق، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه.

هذه ملابسة لا بد منها. تولد مع ميلاد الإسلام ذاته. وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا، ولا خيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا)[1].

ويقول أيضا: (ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقي عليها، وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله للّه، أي أن يكون السلطان في الأرض كله للّه وأن يطارد المعتدون على سلطان اللّه في الأرض كلها. وبذلك وحده يكون الدين كله لله)[2].

وقال: (فيعلن ـ سبحانه ـ بهذه النصوص القطعية عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين وعن قوة الإصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان، وعدم توقيتها بظرف أو زمان! وبدون إدراك ذلك القانون الحتمي في طبيعة العلاقات بين التجمع الإسلامي والتجمعات الجاهلية، وتفسير الظواهر التي تنشأ عنه ـ على مدار التاريخ ـ بالرجوع إليه، لا يمكن فهم طبيعة الجهاد في الإسلام ولا طبيعة تلك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامي. ولا يمكن فهم بواعث المجاهدين الأوائل، ولا أسرار الفتوحات الإسلامية ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية التي لم تفتر قط طوال أربعة عشر قرناً والتي ما تزال مشبوبة على ذراري المسلمين ـ وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام ولم يبق لهم منه إلا العنوان ـ في المعسكرات الشيوعية والوثنية والصليبية كلها: في روسيا والصين ويوغسلافيا وألبانيا، وفي الهند وكشمير، وفي الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب افريقية والولايات المتحدة، وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامي في كل

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٤٤١/.

(٢) في ظلال القرآن /٢/١٠٦١/.

مكان في العالم الإسلامي ـ أو الذي كان إسلامياً بتعبير أدق ـ وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التي تتولى سحق هذه الطلائع، ومد يد الصداقة إليها، وإمدادها بالمعونات التي تبلغ حد الكفالة، وإقامة ستار من الصمت حولها وهي تسحق هذه الطلائع الكريمة! إن شيئاً من هذا كله لا يصبح مفهوماً بدون إدراك ذلك القانون الحتمي والظواهر التي يتجلى فيها)[1].

فعندما نرى حديث كبار العلماء عن مفهوم الدارين، والفارق بينهما، وأحكامهما، ثم نرى كيف تحدث عنها هذا الجيل المعاصر فإننا نرى الفارق الشاسع بين المنهج العلمي الدقيق: الذي يستخرج ما في دين الله تعالى من رحمة وراحة، وبين حالة افتقاد المنهج العلمي، مما انعكست معه مقاصد الشريعة أو تشوهت فتحولت إلى صدام وصراع.

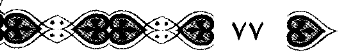
* * *

هذا التعبير (دار الإسلام ودار الكفر) كان في القرن الثالث والرابع الهجري وكان تعبيراً سائغاً ومستقر وليس فيه تعيير ولا يشعر أحد منه بالخطر، ومع تطور الفكر البشري بدأ يتحول إلى تعبير آخر تماماً يُسمى الآن بعلم العلاقات الدولية أو القانون الدولي.

إذن ما فكر به أبو حنيفة والفقهاء الكبار في زمنهم، قبل ألف وثلاثمائة سنة تقريبا، تحت اسم دار الكفر ودار الإسلام تحول عندنا الآن إلى علم كامل له أصوله وفلسفته وقوانينه وأساتذته يُعرف بعلم العلاقات الدولية ويتفرع منه القانون الدولي.

---

(١) في ظلال القرآن /٣/١٥٩٢/.



العلاقات الدولية المبنية على المعاهدات والمكاتبات والبروتوكولات والتعاقدات والشروط والصلح، وهذا الذي بحث عنه الإمام أبو حنيفة ولكنه أسماه بدار الكفر ودار الإسلام.

ولما بدأ عدد من الباحثين المعاصرين يرددون النظر في كتاب: (السير الكبير) للإمام محمد بن الحسن الشيباني، رأوا أن هذا الكتاب حافل بتصوير وقائع الصدر الأول، وزمن النبوة وما بعده، من غزوات، أو سرايا، أو معارك، أو معاهدات، أو شروط، أو اتفاقات هدنة، إلى غير ذلك من صور التفاعل، فانتهوا إلى أن هذا الكتاب يعد أول كتاب مدون في علم العلاقات الدولية، حتى أنشأت جمعية قانونية في باريس سنة ١٩٦٨م، اسمها جمعية الشيباني، تعتني بدراسة هذا الإمام وكتابه المذكور، وأن أول كتاب يشبهه في تاريخ أوربا جاء بعده بنحو ستة قرون.

ولذلك بدأ جماعة من الباحثين المعاصرين يدققون النظر والتأمل فيما كان يتكلم عنه الفقيه القديم، على ضوء العلوم المعاصرة، فصدرت عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي موسوعة من اثني عشر جزء، تسمى (موسوعة العلاقات الدولية في الإسلام)، وهي تتحدث عن أن ما فكر فيه الفقيه القديم هو اليوم علم العلاقات الدولية، وأن تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر يحتاج إلى تتمة وتكميل، يبرز به القسم الثالث والذي هو دار العهد.

وقد قام أحد الباحثين المعاصرين وهو الأستاذ عابد السفياني، فأنشأ أطروحة علمية في تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر، فادعى أن هناك

إجماعا على انحصار العالم في نظر الفقيه القديم في دار الكفر ودار الإسلام فقط وأنه لا ثالث لهما.

ولكن في المقابل قام الدكتور إسماعيل فطاني بإنشاء دارسة أخرى كبيرة عبارة عن أطروحة جامعية انتهى فيها إلى عدم وجود إجماع، وأننا لا نستطيع اليوم أن نسميها، كذلك لشيوع المسلمين مع إمكان ممارسة الشعائر في كل العالم، بل تحول التقسيم القديم إلى ما يمكن تسميته اليوم بدار العهد، وأن هذا هو التراكم الطبيعي للفكرة، التي تبلورت على مدى قرون من الزمان، من تغير الأعراف وأنماط المعيشة، ونظم الإدارة، فضلا عن طفرات الفلسفة السياسية.

ثم قدم الدكتور محيي الدين أحمد قاسم رسالته للدكتوراه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تحت عنوان: (التقسيم الإسلامي للمعمورة، مقارنةً بالجماعة الدولية المعاصرة)، فوصل فيها إلى كل ما نقوله الآن، وأن هذه الفكرة تؤكد ما وصلنا إليه من مقصد الفقيه القديم لقضية دار الكفر ودار الإسلام، وكيف انعكست عند التيارات المتطرفة في الثمانين عاما الماضية، التي اختزلت كل هذه الآفاق الواسعة التي كانت حاضرة عند الفقيه الجليل المهموم والمشغول بكيفية تيسير حياة الإنسان في أي بقعة على ظهر الأرض، وأنه كيف يعيش الإسلام في وسط غير مسلم، ويحافظ في الوقت نفسه على صورة دين الله تعالى أمام العالمين، حتى يرى الناس من خلاله محاسن الشريعة، وأنها دين هداية وأخلاق.

فبينما كان الفقيه مشغولا بهذا وبدراسة الأحكام المترتبة على هذه القضية التي تم تحويلها الآن إلى علم العلاقات الدولية إذ بهذا الفكر يُختزل ـ في عقلية سيد قطب ومحمد عبد السلام فرج وصالح سرية وتنظيم داعش ـ إلى مفهوم أن دار الكفر ودار الإسلام بينهما الصدام والصراع المسلح، الذى تراق فيه الدماء، بل والأسوأ أن نقلوا هذه التصور الموهوم إلى داخل ديار المسلمين بعد أن كفروها، فجعلوا مصر دار كفر، وجعلوا سائر البلدان العربية والإسلامية ديار كفر، ثم انتقلوا إلى التعامل مع هذه الديار بطريقة القتل ورفع السلاح وإراقة الدماء، ثم سموا هذا الإجرام جهادا.

فكم من مفهوم شرعي صحيح قد أهين، وكم من مبدأ نوراني، أنزله الله تعالى ليكون حياةً وهداية ورحمة، وتظهر به حكمة الشرع الشريف، قد تم اختزاله وتشويهه بتحريف غال، وانتحال مبطل، وتأويل جاهل.

فلم تعد القضية عند تلك التيارات قضية البحث عن نطاق سريان الحكم عند غير المسلم، مع إبراز رفعة فكرة العلاقات الدولية وجذورها في الفكر الفقهي القديم، بل نقلتها تلك التيارات إلى ديار الإسلام، وإلى مصر بلد العلم والدين والأزهر والإسلام، فحولوها إلى دار كفر، وسحبوا عليها هذا الفكر المشوش، القائم على التعامل مع دار الكفر في نظرهم بالصراع والعدوان وحمل السلاح، ثم يسمون ذلك جهادا.

* * *

ثم إن ابن تيمية بدأ في مناقشة فكرة أخرى وهي افتراضه أن توجد دار مختلطة أو مشتبهة، لا يسري عليها تعريف دار الإسلام ولا دار الكفر،

مثال ذلك: دار من ديار الإسلام تغلب عليها حاكم غير مسلم، كما وقع أيام دخول التتار إلى أعالي بلاد الشام أو العكس فهذه الدار شعبها مسلم، وحاكمها غير مسلم، فتسمى بـ(الدار المركبة)، وهي دار لها حالة خاصة، قدم فيها مكتوبا يسمى (الفتوى الماردينية)، وماردين هو إقليم وُلد ونشأ فيه ونزح منه في صغره لما دخل التتار.

قال ابن تيمية إن هذه الدار مركبة لها قانون، ملخصه (يعامل فيها المسلم بما يستحقه ويقاتل فيها الخارج عن الشريعة بما يستحقه)، فبدأت التيارات الجهادية والتكفيرية تبني تصرفاتها الدموية على كلمة (يقاتل).

ولكن هنا إشكالات كثيرة، لأن الفتوى عباراتها فضفاضة، فما هو مفهوم الخارج عن الشريعة؟ إنه مفهوم واسع جداً، وشامل لأي شخص مبتلي بشيء من صغار الذنوب إلى الشخص الذي يخرج على المجتمع بالدمار، فهي إذن هي مساحة واسعة وغير محددة والعبارة ليست محكمة.

وبالنسبة لكلمة (يُقاتَل) فمن الذي يقوم بالقتال، فقالت التيارات المتطرفة: نحن نقوم به، وهذا خطأ فادح؛ إذ ليس من حق الأفراد الاستلاب والادعاء والتعدي للمهام التي لا ينهض بها سوى المؤسسات، ولا بد من أن توجد مؤسسة أو نظام إداري مستقر يقوم بنشر الأمن وبمقاومة الفساد كما هو شأن أي أمة محترمة في العالم.

والمقصود أن كلمة (يُقاتل) هي التي بدأ يستمد منها محمد عبد السلام فرج في كتابه (الفريضة الغائبة) موقفه التكفيري الدموي المتعدي على البلدان والناس بالباطل، ورد عليه العالم الفقيه الشيخ عطيه صقر أيضاً في

كتاب: (نقض كتاب «الفريضة الغائبة»).

ثم بدأ عدد من العلماء المعاصرين بدراسة هذه الفتوى من مدخل آخر، وهو تنويع ابن تيمية بين كلمة (يقاتل) مقابل كلمة (يعامل)، وتأكد أن هناك التباسا، خصوصا أنه عن البحث في هذه الزاوية ومراجعة المصادر، فوجد العلماء أن ابن مفلح وهو محرر ومتقن في نقل مذهب الحنابلة ويحكي عبارات ابن تيمية، قد نقل الفتوى، فإذا بها (يعامل المسلم بما يستحق ويعامل الخارج عن الشريعة بما يستحق)، وفارق كبير بين يعامل ويقاتل، يُعامل تعنى دراسة للوضع الاجتماعي والقانوني والتركيبة الثقافية والفكرية للبلد ومراعاة أعرافها وتقاليدها وهذا شيء مختلف تماماً عن مدلول كلمة (يقاتل).

وكان الشيخ رشيد رضا قد نقلها في مجلة المنار على الصواب، لكن هذا التصحيف قد وقع أول ما وقع في طبعة فتاوى ابن تيمية التي أخرجها فرج الله الكردي، سنة ١٣٢٧هـ، ثم تبعه على ذلك الخطأ عبد الرحمن القاسم في مجموع الفتاوى، ج٢٨، ص٢٤٨، وأصبح النص المحرف هو المشهور والمتداول لشهرة تلك الطبعة وتداولها.

وغياب التوثيق، وافتقاد قواعد العلم ومفاتيحه تؤدي إلى كوارث، ونصف العلم أخطر من اللاعلم.

فإن غياب التوثيق في هذه الفتوى أدى إلى تحريفها بشكل أهدر دماء المسلمين وغيرهم، وأضر بمقاصد الشريعة وأهدافها، وتسبب في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وخاصة أن ترجمة الفتوى إلى اللغة الإنجليزية

والفرنسية قد اعتمدت على النص المحرف.

فقام العلامة الكبير الشيخ عبد الله بن بية بترتيب عمل بحثي دقيق، استعان فيه بعدد من الخبراء، للوصول إلى النسخة المخطوطة من تلك الفتوى لابن تيمية، في المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٢٧٥٧، مكتبة الأسد، فإذا بها (يعامل) وليست (يقاتل).

ثم انعقد مؤتمر في مدينة ماردين بتركيا، بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٤٣١هـ، بحضور عدد من العلماء والفقهاء، وصدر عنه بيان يشرح ذلك.

وشارك الأزهر الشريف في ذلك من خلال دراسة تؤكد ذلك، ومن خلال بيان علمي، أعدهما مفتي الديار المصرية فضيلة العلامة الكبير علي جمعة، وكان بحث فضيلته من ضمن مرتكزات مؤتمر ماردين.

فكفى اعتماداً على كتابات المتحمسين والهواة والمحبين والمندفعين، الذين لا يعتمدون إلا على ملكة أدبية أو حماسية، فيخوضون بها في أحكام دقيقة شديدة الصعوبة، ويخرجون بأفهام خاطئة، وتأويلات منحرفة، يُحولون بها دين الله إلى شقاء فى أعين العباد.

قال الله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

- فالاقتصار على المدخل الفقهي وحده عند دراسة العلاقة بين دار الكفر ودار الإسلام خطأ فادح، لأن هناك مدخلا آخر من مداخل دراسة

(١) سورة النساء، الآية ٨٣.



تلك العلاقة، وهو المدخل القيمي، الأخلاقي، وعندما نجمع مدخل الفقه، مع مدخل القيم، مع مدخل السنن الإلّهية المتعلقة بالمجتمع، مع مقاصد الشريعة، مع مدخل الهداية العامة، فحينئذ تتضح أمامنا النظرية الكاملة، التي يمكن للعقل المسلم أن يتوصل إليها، في فهم طبيعة علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم والحضارات والشعوب.

- ثم إن هناك مدخلا قيميا بجوار المدخل الفقهي، في فهم هذه القضية، والمدخل القيمي يقول: إننا ننظر إلى العالم من حولنا من خلال شبكة العلاقات البينية بين القوى الموجودة في العالم من المسلمين أو غيرهم، فلا ترجع فقط إلى الحكم فقهي القائم على الحل والحرمة، والصحة والفساد، والانعقاد وعدمه، بل نرجع حينئذ إلى آفاق أخرى كبيرة، في علم يسمى بعلم (السنن الإلّهية)، ندرس فيه سنن الله تعالى في عباده.

والسنن الإلّهية علم قرآني عريق، يبين لنا القوانين الإلّهية السارية المستقرة المطردة، التي بنى الله تعالى الكون كله عليها، وأن تلك السنن قوانين عليا، لا تتبدل، ولا تختل، ومنها سنن إلّهية في الأنفس، وسنن في الاجتماع البشري، وسنن في قيام الحضارات وسقوطها، وسنن في الكون.

وقد لهج بهذا العلم هنا في المتأخرين الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا في تفسير المنار، ثم الشيخ محمد الصادق عرجون، من كبار علماء الأزهر الشريف، ثم كتب فيه الدكتور مصطفى الشكعة، والدكتور مجدي عاشور، ثم استفاض الأمر عند تلامذة الدكتور مصطفى الشكعة من

المغاربة، وقد أكثر المغاربة والجزائريين في الكتابة عن هذا العلم الجليل، علم السنن الإلَهية، ثم درس هذا العلم في مؤتمر بالأردن، حتى توصل العلماء والباحثون فيه إلى نحو ستين سنة إلَهية في القرآن الكريم، في الأنفس والشعوب والحضارات والآفاق.

والسنن الإلَهية المتعلقة بالمجتمع والحضارات مهمة جدا في فهم طبيعة العلاقة بين لمسلمين وغيرهم، ومهمة جدا في صناعة أصول فقه الحضارة، في مقابل أصول فقه النص عند الإمام الشافعي.

ومن تلك السنن: سنة التعارف، وسنة التكامل، وسنة التوازن، وسنة التدافع، وغير ذلك من السنن.

وسنة التعارف مهمة جدا في علاقة المسلمين بغيرهم، بل في علاقة الأمم والشعوب عامة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[1].

ونحن نستخدم هذه الآية الكريمة بصورة فردية، عندما نلتقي أحدا ونريد التعرف عليه، فحولناها إلى تعارف فردى بين شخصين، ولكن الله جعل التعارف هنا مبنياً على انقسام البشر إلى شعوب وقبائل، وهذا يعني تعارفا أُمميا، يجري بين الشعوب والقبائل.

مما يجعلنا نلتفت إلى أن الأصل في علاقة الأمم هي التعارف، وليست الصدام والإبادة، وهذا في مقابل موجة فلسفية عالمية تتصور طبيعة

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.



العلاقة بين الأمم على أنها قائمة على الصدام والصراع، وأنه لابد لإحدى الحضارات من إفناء غيرها، وهذا الذي نادى به صامويل هانتنجتون في أطروحته (صدام الحضارات)، وفوكوياما في: (نهاية التاريخ)، وهو بعينه الفكر الذي نادى به سيد قطب والتيارات المتطرفة، الذين انحرف تصورهم للشرع، وذهبوا يلصقون الأهواء والأفهام السقيمة بالشرع الشريف.

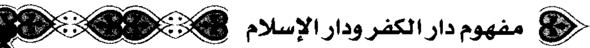
بحيث لو أننا حذفنا الأسماء والهيئات والعوارض، لوجدنا أننا أمام فلسفة واحدة، وفكرة واحدة، وتصور واحد، وهو الصدام والصراع، لكنه هنا يأخذ شكل الإسلام والآيات والأحاديث، بتأويل منحرف، فيخرج في صورة التيارات المتطرفة، وهناك يأخذ شكل الفلسفة وفلسفة نهاية التاريخ فيخرج في صورة هانتنجتون.

وقد قام ملك أسبانيا سنة ١٩٩٧م بالتعاون مع محمد خاتمي وبعض العلماء الإيرانيين لعمل موجة عالمية أرادوا تسميتها (تحالف الحضارات).

ولكن يبقى هذا العلم العريق القرآني يتكلم عن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين وعن العلاقات الدولية وأنها قائمة على سُنة إلَهية جليلة، وهي: (تعارف الحضارات).

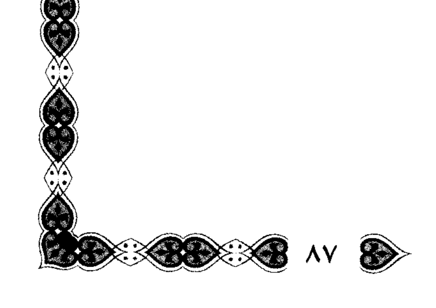
فأين هذا المدخل وكيف غاب وتوارى وأهدر بجوار قضية التكفير وسفك الدماء؟!

وقد كتب أيضا الأستاذ زكى الميلاد عن تعارف الحضارات وبدأت تُدار عنه ندوات؛ لتبحث مفهوم تعارف الحضارات، وهو الصورة الواسعة،



التي تشمل التبادل الثقافي، والتفاعل المعرفي، والتشابك الحياتي، والخبرات ومفاتيح العلم والمعرفة، كما يشمل أحياناً الحروب، والحرب وضع عارض، وصورة عابرة من صور التفاعل، غارقة في محيط واسع يهدف إلى الهداية والرحمة، سماه الله تعالى بالتعارف.

** ** **





(٤)

احتكار الوعد الإلهي ، والاستعلاء به على الناس ، مما يؤدي إلى عقلية تغرق في إنكار الواقع وتكفير المسلمين جميعا



احتكار الوعد الإلهي

ترتب على تكفير المجتمع بقضية الحاكمية، وتعميم وصف الجاهلية ـ التي هي شرك وارتداد ـ على عموم أهل الإسلام، أن نشأ تصور آخر في غاية الغرابة، ألا وهو أن تلك التيارات استلبت وسرقت لنفسها حق الحكم على الناس بالكفر، ثم التفرد دونهم بامتلاك حقيقة الإسلام، واستسهال تكفير الأمة كلها، ثم انطلقوا إلى كل آية فيها وعد من الله تعالى للمسلمين بالمعونة والنصرة والتمكين، فصرفوها إلى أنفسهم هم، وادعوا أنهم هم المخاطبون بها، فجعلهم هذا الوهم يزدادون اندفاعا وتماديا في التشبث بالتكفير، وزادهم جلدا وشراسة في الخروج على عموم المسلمين بالبغي والعدوان، والقتل والدماء، وكلما اصطدموا بالمسلمين وشعوبهم ودولهم ومؤسساتهم، ورد المسلمون عن أنفسهم عدوانهم، أمعنوا هم في إنكار الواقع، لما يتوهمونه من امتلاك وعد إلهي، يخصهم دون غيرهم بالنصر، ويجعلهم غير متقبلين لفكرة التخلي عن وهمهم هذا.

إننا أمام سجل حافل بتصورات مغلوطة، ترتب بعضها على بعض، وتولد بعضها من بعض، واكتنف بها ببعض، واشتبك بعضها ببعض، فصنعت إنسانا موتورا عدوانيا، لا هم له ولا مقصد سوى الانقضاض على المسلمين بالتكفير، مع تصور بتحمية الصراع الأبدي، وهو يستجلب لنفسه

الثقة في وهمه هذا بتصنيع نظرية أخرى، ألا وهي أنه يستهين بكل تلك الصعاب، ويرفض القناعة والتصديق بأنه غارق في الوهم، بسبب عقيدة راسخة عنده، يدعي فيها أن وعود الله تخصه هو، لأنه وحده دون أولئك المسلمين هو المستحق لوصف المسلم، فمن المخاطب بالوعد الإلهي سواه، إنه هو المقصود في نظر نفسه بذلك الوعد الإلهي الذي لا يتخلف.

وتبدأ تلك التيارات المتطرفة حينئذ في صناعة سيل من الأدبيات والقصائد والبطولات والملاحم، التي وقعت بسبب تعديهم على المسلمين، فيعتبرونها هم تاريخا مجيدا في الصبر والثبات، مع سيل من الإسقاطات لآيات كريمات تتحدث عن فئات قليلة غلبت فئات كثيرة بإذن الله، فينطلق لتلك الآيات ويحملها على نفسه، ويجعل نفسه المقصود بذلك الوعد بالنصرة.

فبينما هو متعدٍّ على حرمة القرآن وآياته، منتهك لجلالها بتأويل مظلم، وتحريف لدلالتها، متهجم على حماها بدون أدوات الفهم ولا مناهجه، وبينما هو منغمس في المجتمع بالتكفير والعدوان، خارج عليهم بالبغي والسلاح، ساع في تدمير مؤسساتهم ومجتمعاتهم، وينزل بالقلوب والعقول المرارات، إذا هو في أعماق عقله، وقرارة نفسه متشبث بوهم كفر المجتمع، وأنه وحده المؤيد بالوعد الإلهي.

والنتيجة الخطيرة المبنية على ذلك هو عدم قبوله للمناقشة في وجود خطأ عنده، لأنه توحد بالوعد وامتزج به، فقيامك بالتشكيك في أهليته واستحقاقه، يقابل منه بالرفض التام، لأنه يعني في ذهنه التشكيك في الوعد

الإلهي ذاته، وقد سمعنا بآذاننا من يتكلم عن نجاح فلان في الحكم أو عدم نجاحه بأن هذا شك في الله تعالى.

وهو يخلط بين قوة يقينه فيما يعتقده، وبين مدى الأهلية والكفاءة والخبرة والعلم والمعرفة، فيجعل قوة اليقين عوضا عن عمق الخبرة، ويظن أن قوة يقينه فيما يعتقد تجبر الخلل في المقدرة والخبرة، فيخرج بذلك عن سنن الله في كونه، وقوانينه في عباده، ويخلط بين الأمور، وكلما أنكر الناس عليه قلة خبرته وعدم درايته، استعلى عليهم، ورجع يفتش في نفسه فيجد أنه مستند إلى يقين عميق في وعد إلهي يخصه، وإلى تاريخ من الأدبيات والملاحم، فيجزم بأنه مستكمل لأدوات النجاح، وهو في الحقيقة فاقد لها، منكر ومكابر في دعواه امتلاكها.

إنه لبس مفاهيمي وذهني، تمتهن فيه الآيات القرآنية بتأويلات منحرفة، مما يصنع نموذجا إنسانيا مدمرا للكون، وهو يظن أن يسعى بالهداية.

قال في: (ظلال القرآن): (الوعد بالنصر والغلبة والتمكين، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية. سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء..

ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة.

ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر، لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله.

ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون)[1].

قال في: (ظلال القرآن): (وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان. فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم، ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم. ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين. حقيقة الشعور بولاية الله وحده، والثقة المطلقة بهذه الولاية، والتجرد من كل شائبة من شك في أن جند الله هم الغالبون، وأن الله غالب على أمره، وأن الذين كفروا غير معجزين في الأرض ولا سابقين لله سبحانه! والتعامل مع وعد الله هذا، مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه، فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم)[2].

وقال أيضا: (والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة. فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة، فهذا الواقع هو الباطل الزائل. الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة، لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم.

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية. ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين، يحميهم من الانهيار، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه.. حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى. يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل!! وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو

---

(١) في ظلال القرآن /٥/٣٠٠١/.

(٢) في ظلال القرآن /١/٤٩١/.

الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون، وأن الله ورسله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون. ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون)[1].

وقال: (إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله، حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته.

وفي الطريق مشقات كثيرة. مشقات التكذيب والتعذيب. ومشقات الالتواء والعناد. ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه. ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق)[2].

واسمعوا ما هو أخطر، قال في: (ظلال القرآن): (وأعطاهم الاستعلاء الذي ينظرون به إلى قطعان البشرية الضالة في أرجاء الجاهلية المترامية الأطراف في الأرض فيحسون أن الله آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين)[3].

واسمعوا ربط الاستعلاء بشيوع الجاهلية في الأرض، حيث يقول في: (ظلال القرآن): (وأنه ـ تعالى ـ أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحي ـ الباقي بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به، كلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعهدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستغزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية. وهي بصفتها هذه، مناهج الجاهلية!)[4].

---

(١) في ظلال القرآن /٦/٣٥١٣/.
(٢) في ظلال القرآن /٦/٣٦٧٠/.
(٣) في ظلال القرآن /١/٢٥٢/.
(٤) في ظلال القرآن /١/٢٦١/.

وقال في: (ظلال القرآن): (حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله ـ حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون، ويكلوا أمرها إليه، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة: عطاء ووفاء وأداء فقط، وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء، ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر، ويقع التمكين، ويقع الاستعلاء، ولكن هذا ليس داخلاً في البيعة. ليس جزءاً من الصفقة، ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا، وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء والابتلاء)[١].

فما زال يربط التمكين بالاستعلاء، وهو يشدد على الثقة في الوعد الإلهي، بحيث يمكن للشخص عنده أن يظل في ابتلاء وأداء ووفاء وعطاء، قاصدا وقوع التمكين والاستعلاء، ثم يموت ولا يرى من ذلك شيئا، لكنه يموت مطمئنا إلى أن الاستعلاء والتمكين سيتحققان لمن بعده.

وإذا تربى الإنسان عندهم على ذلك، جعل التمكين والاستعلاء هدفا، يستند في تحقيقه إلى امتلاكه الوعد الإلهي، لا إلى مقدرته على تحقيق الرخاء والعمران، وتيسير سبل المعيشة، وصناعة الحضارة، وإنهاض المؤسسات، وإكرام الإنسان وتوفير مطالبه وكفايته، فيفقد التمكين فحواه، ويتراجع معناه، وتغيب تماما مقاصد الشريعة في حفظ النفس بإحيائها وإكرامها، وحفظ الدين والعرض والمال والعقل، وتختل منظومة الإسلام بالكلية، وتبقى تلك التيارات على الطرف الآخر، تفهم التمكين على أنه مغالبة وإقامة نظام سياسي، وانتزاع مقاليد الحكم، وتفهم الوعد الإلهي على أنه ضمان لهم دون غيرهم بالنجاح والمعونة، ويغيب فقه العمران والرخاء،

---

(١) في ظلال القرآن /١/٥٥٠/.

وكلما افتقد الناس وجوه المعيشة، وتيسير سبل الحياة، وضاقت بهم مسالك الحياة، واجهتهم تلك التيارات بالمكابرة والعناد، وأنكروا الواقع، ثم انتقلوا إلى وهم آخر، وهو أن انتقاد الناس لهم، معاندة من الناس لشرع الله ودينه، فيجعلون توقف الناس عند الإخفاق الواقع عندهم تشكيكا فيما لديهم من وعد إلهي، ويزداد ما قناعتهم من أن الناس ترفض شرع الله، وتزداد إغراقا في الجاهلية، فيأتي دور المغالبة والمقاتلة، وحمل السلاح، ثم يسمون ذلك جهادا في سبيل الله.

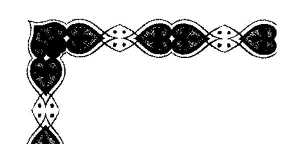
** ** **



(٥)

مفهوم الجهاد





الجهاد

بعد أن وقعت التيارات المتطرفة في تكفير المسلمين، بسبب قضية الحاكمية، ثم وصفوا المسلمين بالجاهلية التي هي كفر وشرك، ثم جزموا بانقطاع هذا الدين منذ قرون، وحكموا بكفر القوانين والدساتير، انتقلوا إلى استلاب مهام الحكام وولاة الأمر، ووجهوا السهام إلى صدور المسلمين، وحصروا هدفهم في نزع مقاليد الحكم، وإنشاء كيان سياسي بديل، وجزموا بحتمية الصدام، ثم سموا ذلك جهادا.

والحقيقة أن مفهوم الجهاد الذي شرعه الله تعالى، وجعله عملا واسعا وراقيا، والقتال صورة من صوره، فقد جعله الله تعالى مرتبطا بمقاصد الشرع التي هي الهداية وإحياء النفوس لا إزهاقها، وجعله الله تعالى محكوما بمنظومة قيم حاكمة، تدفع أصحاب الجهاد الحق ألا يقطعوا شجرة، وألا يهلكوا شاة، وألا يروعوا راهبا في صومعته، وجعله الله تعالى مرتبطا بتقدير شئونه ومقداره ومآلاته، فإذا خرج عن حدوده أو جاوز مقداره أو تم إيقاعه على غير محله خرج عن كونه جهادا، وتحول إلى إساءة وظلم وعدوان.

فنحن أمام عدوان متكرر على مفاهيم الشريعة وقضاياها، ثم إيقاعها وتنزيلها على أفكار مغلوطة عندهم، بعد انطلاقهم من الكارثة الكبرى والتي

هي تكفير المجتمع، حيث تولدت من التكفير سلسلة وشعب كثيرة من التطبيقات المغلوطة، التي يستجلبون لها مصطلحات الشرع الشريف، فتختل مصطلحات الشرع، وتلتبس على الناس، بل ويترتب على ذلك خطأ فادح، وهول عظيم، وأن التطبيقات المغلوطة عندهم، والتي اغتصبوا لها مصطلحات الشرع، جعلت الناس تنظر إلى مفاهيم الشريعة من خلال تطبيقات هؤلاء، فيستقر في الأذهان تصور مغرق في القبح والظلمانية عن قضايا الشرع، وتتحول في أعين الناس إلى شقاء بعد أن جعلها الله رحمة وحياة وإكراما للإنسان.

وقد روى البخاري أيضا من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي ﷺ، فشكا إليه معاذا، فقال النبي ﷺ: يا معاذ! أفتَّانٌ أنت؟ ثلاث مرار، فلولا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾(١)، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾(٢)، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾(٣)؛ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة.

فهذا البيان النبوي الصريح، يجعل الإنسان إذا استقل لنفسه بطريقة في تطبيق الشرع، وألزم الناس بها، حتى أثقل عليهم، جعل هذا عملا خطيرا، وسمى صاحبه فتانا، ولفت نظره إلى مراعاة أثر فعله على نظرة

---

(١) سورة الأعلى.
(٢) سورة الشمس.
(٣) سورة الليل.

الناس للشرع الشريف، كل هذا مع تسليم فضل القائم بذلك وأنه كان يحب التطويل في الصلاة.

فكيف من كفر الناس، ثم حمل عليهم السلاح، ثم سمى عمله هذا جهادا؟؟

وانظر مثلا قول صالح سرية في: (رسالة الإيمان): (والجهاد لتغيير هذه الحكومات وإقامة الدولة الإسلامية فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ لأن الجهاد ماض إلى يوم القيامة، وإذا كان الجهاد واجباً لتغيير الباطل حتى ولو لم يكن كافراً كما الحسين ﵁، وكما قال رسول الله ﷺ: (خير الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله). فإن الجهاد ضد الكفر لا يختلف اثنان من المسلمين أنه أفرض الفرائض وذروة سنام الإسلام: «**من مات ولم يَغْزُ ولم يُحدّث نفسه بالغزو مات ميتةً جاهلية**»، ومن ماتوا دفاعاً عن حكومات الكفر ضد من قاموا لإقامة الدولة الإسلامية فهم كفاراً إلاّ إذا كانوا مُكرهين فإنهم يبعثون عن نياتهم. وهذه قضية خطيرة أغفلها المسلمون اليوم وتحتاج إلى أفرادها برسالة مستقلة، إذ إن الحركات الإسلامية كثيراً ما تتلكأ عن القيام ضد هذه الدولة خوفاً من إراقة الدماء لأنهم لم تتضح لهم هذه القضية الواضحة وضوح الشمس وهي كفر هذه الدولة).

فبهذا تحول مفهوم الجهاد على يده إلى التكفير والعدوان على الناس، وقد تورط في ظلمات متكاثفة سماها جهادا.



مقارنة

بين الجهاد كما شرعه الله، وهو أمر شريف يحقق الهداية، وبين الصورة المظلمة المغلوطة له عند التيارات المتطرفة

التصور الصحيح للجهاد عند علماء الأمة	التصور المغلوط للجهاد عند التيارات المتطرفة
١ ـ اتساع مفهوم الجهاد: حيث إن الجهاد الذي شرعه الله هو شأن شريف نوراني، يتحقق بصور متعددة، فيكون بالقلب، وبالدعوة، وبالحجة، وبالبيان، والرأي والتدبير، وقد تتحتم الحاجة فيه إلى القتال عند الصراع فيكون بالقتال. وانظر كلام الفقهاء في ذلك في كتاب: (كشاف القناع) للعلامة البهوتي/٣/٣٦/، ط: عالم الكتب، سنة ١٤٠٣هـ، وانظر مطالب أولي النهى/٢/٥٠٣/، ط: المكتب الإسلامي. * * *	١ ـ اختزال الجهاد في القتال فقط، واختزال القتال في القتل. * * *

٢ ـ الجهاد عند عموم العلماء وسيلة، وليس غاية تقصد لذاتها، والوسائل هي الأحكام التي شرعت لتحصيل أحكام أخرى، فهي غير مقصودة لذاتها، بل لتحصيل غيرها على الوجه الأكمل، كما هو تعريف إمام علماء المقاصد العلامة الطاهر بن عاشور في كتاب: (مقاصد الشريعة) /ص١٤٨/. وعليه فارتباط الجهاد بالقتال ليس متعينا، بل لمتعين هو ما يحقق المقاصد، فقد يصبح ترك القتال نفسه متحتما لتحقيق المقصود الذي هو الجهاد، حتى ينص شيخ السادة الشافعية الإمام الرملي في: (نهاية المحتاج) /٨/٤٦/ على أن الجهاد قد يحصل بإحكام الحصون والخنادق، وقد يحصل بالقتال. * * *	٢ ـ القتال عندهم غاية مقصودة لذاتها، قال القرضاوي في كتاب: (ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة) /ج٣/ص٥٩/: (وكما ناقشتُ الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية «الاجتهاد»: ناقشته في رأيه في «الجهاد»، وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). * * *
٣ ـ المقصد الأعظم عند العلماء هو للجهاد هو الهداية، قال الإمام التقي السبكي في: (الفتاوى) (ج٢/ص٣٤٠)، ط: دار المعرفة، بيروت: (قوله ﷺ لعلي لما وجهه	٣ ـ ليس للجهاد عندهم ولا القتال أدنى دور في تحقيق الهداية. * * *

إلى خيبر: «**لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم**»، فرأينا قوله ﷺ ذلك، في هذه الحالة، يشير إلى أن المقصود بالقتال إنما هو الهداية، والحكمة تقتضي ذلك، فإن المقصود هداية الخلق، ودعاؤهم إلى التوحيد، وشرائع الإسلام، وتحصيل ذلك لهم ولأعقابهم إلى يوم القيامة، فلا يعدله شيء.

فإن أمكن ذلك بالعلم، والمناظرة، وإزالة الشبهة فهو أفضل، ومن هنا نأخذ أن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء.

وإن لم يمكن إلا بالقتال قاتلنا إلى إحدى ثلاث غايات: إما هدايتهم، وهي الرتبة العليا، وإما أن نستشهد دونهم، وهي رتبة متوسطة في المقصود، ولكنها شريفة لبذل النفس، فهي من حيث بذل النفس التي هي أعز الأشياء أفضل، ومن حيث إنها وسيلة لا مقصود مفضولة، والمقصود إنما هو إعلاء كلمة الله تعالى).

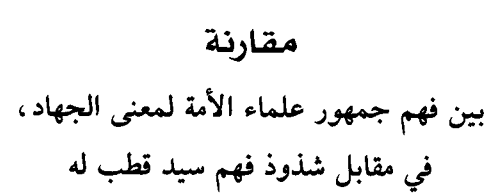
وقال الإمام العز بن عبد السلام في: (قواعد الأحكام) /١/١٢٥/: (إن الوسائل تسقط

بسقوط مقاصدها).	
٤ ـ الجهاد حكم شرعي، وليس حماسة أو اندفاعا، فتعتريه الأحكام التكليفية الخمسة، فقد يكون واجباً، وقد يكون مندوبا، وقد يكون حراماً، بحسب تقدير شئونه وأحواله ومقاصده ومآلاته، وقد شرع الله الأحكام وشرع أيضاً ما يرفعها، فربما كان الجهاد في صورته صحيحا لكنه باطل في الحقيقة، لجريانه على غير محله، ولخروجه عن ضوابط الشرع فيه، وإذا خرج الجهاد عن ضوابط الشرع فيها تحول إلى عدوان وقتل وسفك دماء، وسعي في الأرض بالتدمير، وإذا كان ﷺ تكلم عن آداب الوضوء ثم قال: «**فمن زاد على ذلك فقد أساء وظلم**»، فجعل تجاوز المقدار المحدد شرعا في استعمال الماء في وضوء الشخص ظلما وإساءة، رغم أنه أمر شخصيٌّ في استعمال المياه، فكيف بمن يطيح بالرقاب، ويريق الدماء، ويروع الآمنين، ويفعل كل ذلك بمنتهى الفوضوية، وليس له في منطلقه أي تأصيل شرعي يصحح انتساب فعله إلى	٤ ـ الجهاد أو القتال عندهم عمل عدواني أهوج، لا يحكمه دين ولا عقل، بل هو تزوير للمفاهيم، حيث يرتكبون المذابح الهائلة، ويقطعون الرقاب، ثم يطلقون اسم الجهاد على تلك الجرائم، فتكون النتيجة أن يلحد الناس ويصدون عن دين الله. * * *



الشرع، فالأمر في حقيقته أهواء تتلاعب بأصحابها، وتشبع ما في نفوسهم المريضة من زعامة وتسلط على رقاب الناس، ثم هم ينسبون كل تلك الجرائم المنفلتة للشرع الشريف، فيصدون الناس عن دين الله، فالجهاد حكم شرعيٌّ، قد يكون واجباً، وقد يكون محرماً ممنوعا إذا فقد شروطه، وأغرق أصحابه في سفك الدماء، وحولوا الجهاد من باب صدّ للعدوان، وحرص على تأمين المجتمعات، ووقف الانتهاك، إلى شهوة نفسية للقتل والتسلط، وقد قال الإمام القرافي في: (الفروق) /١/١٣٥/: (كما شرع الله تعالى الأحكام شرع روافعها).

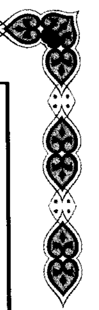
* * *



مقارنة

بين فهم جمهور علماء الأمة لمعنى الجهاد، في مقابل شذوذ فهم سيد قطب له

شذوذ سيد قطب	رأي جمهور العلماء
الجهاد عند سيد قطب صدام مع العالم كله قال القرضاوي في كتاب: (ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة) /ج٣/ص٥٩/: (وكما ناقشتُ الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية «الاجتهاد»: ناقشته في رأيه في «الجهاد»، وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا	قال القرضاوي في كتاب: (ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة) /ج٣/ص٦١/، ط٢: دار الشروق، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م: ومما ننكره على الأستاذ سيد (قطب) رحمه الله: أنه يتهم معارضيه في فكرته عن الجهاد من علماء العصر بأمرين: الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي. والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسي، أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر! مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي. والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى



أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).	المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد فرج السنهوري، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، وغيرهم من شيوخ العلم الديني، ممن قضى نحبه ولقي ربه، مثل الذين ذكرناهم، وممن ينتظر من أعلم لهم قدرهم، لا داعي لتسميتهم.

** ** **



(٦)

مفهوم التمكين



التمكين

تمثل فكرة التمكين عصبا جوهريا، وأساسا محوريا، للمنظومة الفكرية الكاملة لفكر جماعة الإخوان، ولسائر التيارات التي خرجت من رحمها، حيث تم طرحة والتنظير له بطريقة تحوله الى عمل سياسي حركي منظم، يتماشى مع السياق العام، لنظرياتهم المتعددة، المنطلقة من تكفير عموم المسلمين، بشعوبهم وأنظمتهم، وحكوماتهم، وشيوخهم، ومؤسساتهم، وأن هذا الدين قد انقطع وجوده، وأن الأرض غارقة في جاهلية كفر وارتداد، وأن الصدام والصراع حتمي، مع القيام بمجموعة أعمال دموية ضد المجتمعات المسلمة أسموها ظلما وعدوانا بالجهاد، ثم انتقلوا بعد ذلك كله إلى التنظير لفكرة أسموها بالتمكين، يريدون بها مجموعة الإجراءات والمساعي والتدابير، التي يخططون لها، للوصول إلى السلطة، وإقامة كيان سياسي، يتصورون أنه هو السبيل الوحيد لإقامة الدين.

وقد توصلوا إلى صناعة تلك التصورات الظالمة المظلمة، عن طريق سيل من التأويلات المنحرفة، والأفهام السقيمة الملتبسة، التي صُنِعتْ بالحماس والانفعال والمشاعر والأدبيات فقط، مع افتقاد تام وفقر شديد في أدوات المعرفة، التي تمكنهم من النحت والتصنيع والاستخراج للمفاهيم القرآنية، على نحو يحقق مقاصد القرآن، ويحترم تجربة المسلمين عبر التاريخ في فهمه وتطبيقه.

إن صناعة المفاهيم واستخراج القضايا والمدلولات من القرآن، هي عملية صناعة معرفية ثقيلة، لابد لها من أدوات علمية، ومفاتيح، ومعايير ومقاييس، وضوابط تضمن صحة الفهم، وموازين تعين على قياس مدى انطباق ذلك الفهم على مراد القرآن ومقصده، إنها عملية علمية مهيبة، ودقيقة، لأنها تصون الوحي الشريف من أن ينسب إليه أحد أفهاما مفعمة بالأهواء البشرية، تترجم عنه ترجمة غير أمينة ولا مطابقة لمقاصده، ثم تناضل عن أفهامها تلك، وتعتبرها حقا مطلقا، له قداسة النص الشريف.

ومن أجلِّ وأكمل مقاصد أهل العلم أن يتابعوا في كل زمان ما يطرأ ويجد ويستحدث من الأفهام والأطروحات التي تنسب نفسها للوحي، لترى ما له أصل تحتمله أدوات الفهم ومناهجه فيبقى وإن اختلفت فيه الأفهام والمدارك، ولترى ما هو هوى بشري محض، وانفعال بحت، يحاول تقويل القرآن ما لم يقل، وينسب هواه إلى الوحي الشريف.

ومعيار قياس الأفهام التي يصح انتسابها للوحي دون غيرها هو استخدام قواعد أصول الفقه، وعلوم البلاغة من المعاني والبيان، والقواعد الفقهية، ومقاصد الشريعة، ومعرفة ما أجمع عليه المسلمون، مع الصبر والتمرس بمدارك أئمة الاجتهاد وأهل العلم، ومعرفة التجربة التاريخية التي تراكمت عند المسلمين من تحويل آيات القرآن إلى برامج عمل تفرز البصيرة والهداية، وتتلائم وتنسجم مع ظروف كل عصر وزمن.

وقد أخرجت تلك التيارات المتطرفة فهما مغلوطا، في قضية التمكين، فأتوا بتصور انفعالي متخبط، لا يجمع النصوص القرآنية الواردة

في هذه القضية، ولا يُحْسن تركيبها وتنسيقها، ولا يصبر على سبر مدلولات ألفاظها وسياقاتها، ولا يقايس نتائج فهمه إلى بقية موارد الشرع حتى تنسجم الأفهام ولا يصدم بعضها بعضا.

وبسبب غياب هذه المنهجية أخذوا آية من كتاب الله، صوروا معها مفهوم التمكين الذي يتحدث عنه القرآن على أنه مجموعة إجراءات تتيح للإنسان السعي إلى السلطة، مستبطنا احتكاره للإسلام، وأنه وحده دون غيره الأحق بإقامته، وأنه يمتلك دون بقية المسلمين وعدا إلهيا بنصره على بقية المسلمين، حيث إنه منطلق أساسا من تكفيره للمسلمين.

بينما إذا تركنا التنظير الذي أخرجته هذه التيارات، ورجعنا إلى معين القرآن، وجمعنا كل كلمة فيه مشتقة من مادة هذه المادة، كالـ(تمكين)، أو (مكن)، أو (نمكن)، أو (مكنا)، مما ورد في القرآن بلفظه، أو ما ورد فيه مما يفيد هذا المعنى بأي لفظ أو تعبير قرآني آخر، وجمعنا ذلك كله معا في صعيد واحد، ولو أننا ضممنا إلى ذلك أعلى نموذجين وصفهما الله تعالى بالتمكين، وهما نموذج سيدنا يوسف، ونموذج ذي القرنين، لوجدنا أننا نسبح في أنوار وآفاق رحيبة، من نظرية قرآنية، تختلف تمام الاختلاف عما ينظر له هؤلاء.

والتمكين كما يطرحه هؤلاء فكرة في غاية اللبس، طرحتها التيارات الإسلامية على نحو يغير نظرة الإنسان تماماً إلى دين الله، ومقاصده العليا الرفيعة، وما تثمره في البشرية من قيم وعمران وهداية ورحمة.

وعندما نتفقد معناها أو التعبير عنها أو مفهومها في كتابات الأئمة

الكبار فإننا لا نجد لها أثراً، حتى إن أشد المعاصرين من الإخوان المسلمين تحمسا ولهجا بها، وهو الدكتور على محمد الصلابي وقد قدم أطروحة جامعية في السودان عن (فقه التمكين في القرآن الكريم)، فإنه يقول في أولها: (وعلى حد اطلاعي المحدود على هذا الفقه، تعتبر أبحاثه جديدة، حيث بدأت الكتابة فيه والإشارة إلى أهميته مؤخرا)، إلى أن قال: (وقد رأيت أن مادة فقه التمكين من أهم الأبحاث والأطروحات التي يجب أن يهتم بها الباحثون)[1].

وسبب ذلك هو عمق فهم الأقدمين لمفهوم التمكين كما يطرحه القرآن، وأنه نتيجة وأثر لمجموع أوامر القرآن بالإيمان، والأخلاق، والهداية، والجد، والعمل، والعمران، والحضارة، والبحث العلمي المنتج لمنظومة العلوم الإنسانية على قاعدة الوحي وأساسه، فإذا انطلق المسلمون في تلك المقدمات وأقاموا تلك المبادئ، أوجد الله تعالى لهم بين العالم صيتا حسنا، وسمعة عالية، بحيث يشيع لهم في العالمين أفضل الذكر، ويعرف العالم عنهم الحضارة والعمران، وتأصيل دوائر العلوم في مختلف المجالات، فتطلب الحضارات ما عندهم من أسرار العلم والمعرفة، ويرحلون إلى ديارهم للتعلم، ويرون منهم أحسن الأخلاق وأزكاها، فتكون الأمة دالة على الله تعالى بمسلكها وتطبيقاتها، قبل الدلالة إليه بالعلم والنقاش والمناظرة، فهذا الأثر الذي يشيع في الأمم، من استحكام قواعد الحضارة ودوائر العلوم عندهم، هو الذي يسميه الله تعالى تمكينا، فلم يكن

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم أنواعه، شروطه، أسبابه، مراحله وأهدافه /ص٦/، ط: مؤسسة اقرأ، القاهرة، سنة ٢٠١٤م.

المسلمون مشغولين بتحقيق قضية التمكين عبر تاريخهم لأنها نتيجة وليست إجراء ولا مقدمة.

ولأجل هذا عبر الله تعالى بوصف التمكين في حق عدد من الأمم التي أهلكها الله بذنوبها، لأن التمكين في حقهم هو إحكام القبضة على علوم الحضارة، فشاع لهم بين الأمم صيت بما يحسنونه، رغم أنهم منطلقون من أساس غير إيماني، إلا أن التمكين قد يكون لحضارة مؤمنة فيتحول التمكين إلى أساس للتعريف بمحاسن هذا الدين، أو أن يوجد في يد حضارة لا تنطلق من أساس الإيمان، فتتحول مناهج البحث العلمي عندها إلى منهجيات تُنَحّي وتستبعد قضية الألوهية من منظومة الفكر، وهذا هو الواقع عبر تاريخ البشرية، من التدافع المعرفي الفكري بين من ينظر لفكرة الإيمان ومن يتجافى عنها.

فلما أن جاءت التيارات المتطرفة، وبدأت بتكفير عموم المسلمين، وادعوا انقطاع الدين، وأن البشرية كلها غارقة في الجاهلية التي هي كفر، بدأوا يخططون لكيفية إقامة الدين حسب فهمهم، مع قصور شديد في أدوات فهم الوحي، فانتزعوا مفهوم التمكين، وحملوه على المعنى الذي يقومون هم به، وحولوه من نتيجة إلى مقدمة، ومن صنع إلهي يفتحه الله لمن رأى فيه الجد، إلى إجراءات يقومون هم بها، ويقاتلون دونها، وذلك من خلال طرق مضطربة في استكشاف الوحي واستخراج معانيه.

* * *

ومما يدل على مدى مركزية فكرة التمكين في منظومة فكر التيارات المتطرفة: قول علي الصلابي في كتابه: (فقه النصر والتمكين): (إن التمكين لدين الله هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل لأجل الإسلام، الدعوة بكل مراحلها وأهدافها وسائلها، والحركة وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال، والتنظيم وما يستهدفه في الدعوة والحركة، والتربية بكل أنواعها وأهدافها ووسائلها)[١].

ثم ينتقل الدكتور علي الصلابي إلى مبحث عنده عنوانه: (أهداف التمكين)، فيقول: (إن من القضايا المهمة التي يجب بحثها أهداف التمكين ومقاصده الأساسية، وإذا رجعنا لنصوص الكتاب والسنة نجد أن من أهداف التمكين ما يلي:

١ ـ أن يتمكن المجتمع المسلم من إقامة سلطة سياسية)[٢].

ومن العجيب أنه يتفرع بعد ذلك في مباحث تتناول هذا الهدف الذي هو إقامة سلطة سياسية، وما ينتج عنه، فيغرق في جزيئات تنتج في زعمه عن إقامة السلطة السياسية، ثم ينفرط منه الكلام إلى آخر الكتاب، فلم يذكر لنا هدفا آخر للتمكين بعد هذا الهدف الأول، والذي هو إقامة سلطة سياسية.

ثم ينتقل في شرح مراحل التمكين إلى مرحلة يسميها: (مرحلة المغالبة)، يقول فيها: (إن مرحلة المغالبة لابد لأفرادها أن يكونوا قد

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم أنواعه، شروطه، أسبابه، مراحله وأهدافه /ص٤٣٩/.
(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم أنواعه، شروطه، أسبابه، مراحله وأهدافه /ص٤٥٣/.

استوعبوا مفهوم الجهاد بعمومه، وأن تكون كافة الكوادر في جميع المجالات مستعدة للتحرك نحو تولي أمور الحكم، وتحكيم شرع الله تعالى، والتمكين لدينه، إن حركة المسلمين في مرحلة المغالبة تهز عروش الطغاة، وكلما قطعت الدعوة مرحلة من مراحلها ازداد فزع الظلمة، واقتربت نهاية الأحكام الجاهلية، إن سهام الدعوة موجهة إلى أسس تقوم عليها عروش الطغاة، ومن أهم هذه الأسس التي تسعى إلى نزعها: نزع مقاليد الحكم من أيديهم)[1].

فالتمكين عندهم فكرة تشتمل على أمور:

١ ـ التمكين هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل لأجل الإسلام.

٢ ـ هدف التمكين إقامة سلطة سياسية.

٣ ـ أهم مراحل التمكين هي المغالبة.

٤ ـ المغالبة هي الجهاد في نظره.

٥ ـ حركة المغالبة والجهاد تهز عروش الطغاة، وتنهي حكم الجاهلية وتنزع مقاليد الحكم من أيديهم.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم /ص٤٣٣.

وأساس الاستدلال عند هذه التيارات هو الآية الكريمة: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1]، فقالوا هذا دليل قرآني على مشروعية السعي إلى الامارة وطلب الحكم والقيام به، وربما وجدوا شيئا من عبارات المفسرين تدل على هذا، وغابت النظرية القرآنية الأصيلة التي تشرح التمكين الذي هو سنة إلّهية، وجاء سيد قطب في هذه الآية بكلام في غاية الخطورة، ومفاهيم في غاية الالتباس.

حيث إن من يطالع (ظلال القرآن)[2] في تفسير هذا الموضع يجد نفسه أمام نظرية متكاملة تستحق وحدها كتابا تفصيليا لمناقشتها وتفنيدها، لشدة غرابة الطرح الذي أورده في هذا الموضع.

وسوف ألخص هنا معالم نظريته تلك، في نقاط محددة، ثم نعلق عليها تعليقات يسيرة، نبين فيها مدى الخلط العميق واللبس الهائل، الذي وقع عنده في فهم فكرة التمكين كما يشرحها القرآن، وكيف أنه انطلق إليها بتصورات مظلمة، مسخت المفهوم القرآني، وامتهنته.

والمنطلق الذي تحرك منه سيد قطب هو أن فقهاء الإسلام وقفوا هنا وقفة تفكير، بين قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[3]، مع ما توهمه من أنه طلب الإمارة وسعى إليها، في مقابل الهدي النبوي الذي نهى عن السعي للإمارة وطلبها، حيث روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث

(١) سورة يوسف، الآية ٥٥.
(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٦ ـ ٢٠١٣/.
(٣) سورة يوسف، الآية ٥٥.

عبد الرحمن بن سمرة أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **(يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)**[1].

والعقل المسلم يدرك أن القرآن وحي من عند الله، وأن السنة النبوية المشرفة وحي من عند الله، فلا تناقض بينهما، وأن المسالك العلمية الدقيقة تستخرج وجوه الربط والتوافق، التي تنسجم بها نصوص الوحيين الشريفين.

فتعددت مناهج العلماء في الكشف عن وجوه الربط والتناسق والانسجام بين مفردات الوحي الإلهي الموجود في قول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[2]، مع ما توهمه من أنه سعى وطلب، مع الهدي النبوي المحمدي الذي يتلخص في شعار: **(لا تسأل الإمارة)**.

لكن سيد قطب أتى في الجواب على ذلك بنظرية غريبة جدا، تدل على مدى ما تورط وأمعن فيه ذلك العقل من ظلمات، يتخبط بها في تصوراته ومفاهيمه وقناعاته التي ينتهي إليها.

وتتكون نظرية سيد قطب هنا من عدة أمور:

١ ـ اتهام عقول الفقهاء وعقلية الفقه كلها بأنها خمدت وجمدت في قرون الخمود والركود.

(١) صحيح مسلم /٦/٥/، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة، ط: دار النوادر، دمشق، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٥.

٢ ـ الفقه نشأ من خلال حركة مجتمع مسلم، والمجتمع بحركته هو الذي أنشأ الفقه.

٣ ـ التفرقة بين فقه الحركة وفقه الأوراق، واتهامه من لم يعرف ذلك بأنهم ليسوا فقهاء وليس لديهم فقه بطبيعة الفقه ولا بطبيعة هذا الدين أصلا.

٤ ـ الأحكام الفقهية لم تنشأ في فراغ، ولا تعيش في فراغ، وهو يقصد بذلك الإشارة إلى زوال الأمة المسلمة، لأنها كفرها ووصفها بالجاهلية والشرك، فزالت الأحكام الفقهية بزوال الأمة في نظره.

٥ ـ عدم تزكية النفس وترشيحها للمناصب حكم فقهي نشأ في مجتمع مسلم ليطبق في مجتمع مسلم، فإذا انعدم المجتمع المسلم زالت الأحكام الفقهية.

٦ ـ الحركة هي العنصر المكون لهذا المجتمع.

٧ ـ الحركة المستمرة في المجتمع المسلم تفرز تلقائيا أقدار الناس بحسب الابتلاء والصبر، فالمجتمع كله يرشحهم ويزكيهم.

٨ ـ لا يقال إن المجتمع بعد أن يستقر فإنه يحتاج إلى عدم تزكية النفس لأن المجتمع في حالة حركة مستمرة، يستمر فيها إفراز مقامات الناس.

٩ ـ المجتمع المسلم المعاصر كله مجتمع جاهلي (كافر) فهو فراغ لا تعيش فيه الأحكام الفقهية أصلا.

١٠ ـ يدّعي سيد قطب المعرفة، وأنه هو وحده يعرف البدء في هذه المتاهة.

١١ ـ الدين حاليا لا يلبي احتياجات المجتمعات الجاهلية الكافرة لأنه لا يعترف بشرعية وجودها أصلا، ولا يشغل باله بها،

والمجتمعات الجاهلية هنا هي مجتمعات المسلمين، لكن بعد أن قام هو بتكفيرها.

١٢ ـ لابد أولا وقبل كل شيء من محاربة العالم كله لإنشاء المجتمع المسلم وحينئذ ينشأ له فقه جديد.

فهو يريد أن يصطدم بالعالم كله، ثم يسمى هذا جهادا، فقام أولا: بتكفير الناس، ثم حرمهم من الفقه، ثم ينطلق ليحاربهم ليخضعهم، وينشئ لهم الفقه بعد ذلك.

١٣ ـ لابد من إخضاع الناس ودخولهم في هذا الدين أولا، ثم بعدها ينشأ التشريع لهم.

١٤ ـ كل هذا لا يعني أن الأحكام الشرعية غير مطبقة بالفعل، بل هي قائمة فعلا، لكن المجتمع المسلم الذي تقوم فيه هو التي ليست موجودة ولا قائمة.

١٥ ـ وأخيرا فإن هذا يكشف لنا سر سعي سيدنا يوسف للإمارة في نظره، لأنه كان يعيش في مجتمع جاهلي، لا تنطبق فيه قاعدة عدم تزكية النفس.

* * *

فهذه هي الأركان الظلمانية الظالمة التي تتكون منها نظرية الفقه عند سيد قطب، وسوف نورد لك كل نقطة مصحوبة بنص كلامه، ثم نعقب عليها بما يكشف مقدار ما فيها من جناية على الإسلام والمسلمين، ومن انتهاك لحرمة القرآن بالتعدي على آياته ومعانيه، وإلصاق الأفهام الحائرة المضطربة المظلمة بها.

ويكفي قبل النقد والبيان أن يشهد رجل كالدكتور يوسف القرضاوي على سيد قطب بعدم معرفته بالفقه أصلا، فيقول: (لو أتيح له دراسة الفقه الإسلامي، والعيش في كتبه ومراجعه زمنًا، لغير رأيه، ولكن تخصصه ولون ثقافته لم يتح له هذه الفرصة، وبخاصة أن مراجع الفقه بطريقتها وأسلوبها لا تلائم ذوقه الفني الرفيع)

* * *

واستمع إلى عبارات سيد قطب بحروفها وكلماتها في كل قضية وعنصر من العناصر السابقة:

١ ـ اتهام عقول الفقهاء وعقلية الفقه كلها بأنها خمدت وجمدت في قرون الخمود والركود، فيقول: (لأننا نرى أن الأمر في هذه المسألة أبعد أعماقاً، وأوسع آفاقاً من أن يرتكن إلى هذا الوجه وأنه إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة في كيانها، والتي خمدت وجمدت في عقول الفقهاء وفي عقلية الفقه كلها في قرون الخمود والركود!)[١].

---

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٦/.

٢ ـ الفقه نشأ من خلال حركة مجتمع مسلم، والمجتمع بحركته هو الذي أنشأ الفقه، فيقول: (إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ!.. لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية. كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع المسلم إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي، وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية)[١].

٣ ـ التفرقة بين فقه الحركة وفقه الأوراق، واتهامه من لم يعرف ذلك بأنهم ليسوا فقهاء وليس لديهم فقه بطبيعة الفقه ولا بطبيعة هذا الدين أصلا، فيقول: (الذين يفعلون ذلك ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ.. هؤلاء ليسوا «فقهاء»! وليس لهم «فقه» بطبيعة الفقه! وبطبيعة هذا الدين أصلاً! إن «فقه الحركة» يختلف اختلافاً أساسياً عن «فقه الأوراق»)[٢].

٤ ـ الأحكام الفقهية لم تنشأ في فراغ، ولا تعيش في فراغ، فيقول: (من ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته، يعيش في فراغ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التي نشأ نشأته الأولى فيها.. إنه لم ينشأ في فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش في فراغ!)[٣].

٥ ـ عدم تزكية النفس وترشيحها للمناصب حكم فقهي نشأ في

---

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٦/.
(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٦/.
(٣) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٦/.

مجتمع مسلم ليطبق في مجتمع مسلم، فإذا انعدم المجتمع المسلم زالت الأحكام الفقهية، فيقول: (فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق في مجتمع إسلامي.. وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي. وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي.. إسلامي في نشأته، وفي تركيبه العضوي، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة.. وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر «فراغاً» بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يصلح له، ولا يصلحه كذلك!.. ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي)[1].

٦ ـ الحركة هي العنصر المكون لهذا المجتمع، فيقول: (إن الحركة هي العنصر المكوّن لذلك المجتمع. فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية)[2].

٧ ـ الحركة المستمرة في المجتمع المسلم تفرز تلقائيا أقدار الناس بحسب الابتلاء والصبر، فالمجتمع كله يرشحهم ويزكيهم، فيقول: (حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويمكّن لهم في الأرض ـ كما مكن للمسلمين أول مرة ـ فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي.. ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية.. ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم)[3].

٨ ـ لا يقال إن المجتمع بعد أن يستقر فإنه يحتاج إلى عدم تزكية النفس لأن المجتمع في حالة حركة مستمرة، يستمر فيها إفراز مقامات الناس، فيقول: (ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى. فإذا استقر

---

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٧/.

(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٧/.

(٣) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٨/.

المجتمع بعد ذلك؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة.. يتحرك لتحرير «الإنسان»)[١].

٩ ـ المجتمع المسلم المعاصر كله مجتمع جاهلي (كافر) فهو فراغ لا تعيش فيه الأحكام الفقهية أصلا، فيقول: (وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر ـ بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية ـ فراغاً لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام)[٢].

١٠ ـ يدعي المعرفة، وأنه هو وحده يعرف المخرج من هذه المتاهة، فيقول: (أنا أعرف نقطة البدء في هذه المتاهة.. إنها هي افتراض أن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه مجتمع مسلم وأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي الحاضر، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة! هذه نقطة البدء في المتاهة.. ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ في فراغ، ويوغل في هذا الفراغ، حتى يبعد في التيه، وحتى يأخذه الدوار! إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام.. لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك)[٣].

١١ ـ الدين حاليا لا يلبي احتياجات المجتمعات الجاهلية الكافرة لأنه لا يعترف بشرعية وجودها أصلا، ولا يشغل باله بها، فيقول: (كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها.. ذلك أن هذا

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٨/.
(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٩/.
(٣) في ظلال القرآن /٤/٢٠٠٩/.

الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها. ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك)[١].

١٢ ـ لابد أولا وقبل كل شيء من محاربة العالم كله لإنشاء المجتمع المسلم وحينئذ ينشأ له فقه جديد، فيقول: (وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء. فيفتن من يفتن ويرتد من يرتد، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يمكن الله له في الأرض، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه، وتميزوا بقيمه.. وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها.. وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام وينشأ فقه إسلامي حي متحرك ـ لا في فراغ ـ ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات)[٢].

١٣ ـ لابد من إخضاع الناس ودخولهم في هذا الدين أولا، ثم بعدها ينشأ التشريع لهم، فيقول: (ونحسب أنه قد آن للإسلام أن يستعلي في نفوس دعاته، فلا يجعلوه مجرد خادم للأوضاع الجاهلية، والمجتمعات الجاهلية، والحاجات الجاهلية. وأن يقولوا للناس ـ وللذين يستفتونهم بوجه خاص ـ تعالوا أنتم أولاً إلى الإسلام، وأعلنوا خضوعكم سلفاً لأحكامه.. أو بعبارة أخرى.. تعالوا أنتم أولاً فادخلوا في دين الله، وأعلنوا عبوديتكم لله وحده، واشهدوا أن لا إله إلا الله بمدلولها الذي لا يقوم الإيمان والإسلام إلا به. وهو إفراد الله بألوهيته في الأرض كإفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته ـ أي حاكميته وسلطانه ـ وحده في حياة الناس بجملتها. وتنحية ربوبية العباد للعباد، بتنحية حاكمية العباد للعباد، وتشريع العباد للعباد، وحين يستجيب الناس ـ أو الجماعة منهم ـ لهذا القول، فإن المجتمع المسلم يكون قد بدأ أولى خطواته في الوجود. وهذا المجتمع يكون

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠١٠/.
(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠١١/.

حينئذ هو الوسط الواقعي الحي الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي الحي وينمو، لمواجهة حاجات ذلك المجتمع المستسلم لشريعة الله فعلاً)[1].

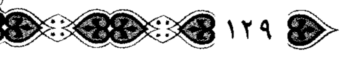
١٤ ـ وكل هذا لا يعني أن الأحكام الشرعية غير مطبقة بالفعل، بل هي قائمة فعلا، لكن المجتمع المسلم الذي تقوم فيه هو التي ليست موجودة ولا قائمة، فيقول: (إن هذا لا يعني ـ بحال ـ أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلاً من الوجهة الشرعية. ولكنه يعني فقط أن المجتمع الذي شرعت هذه الأحكام له، والذي لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه ـ بل الذي لا تعيش هذه الأحكام إلا به ـ ليس قائماً الآن فعلاً. ومن ثم يصبح وجودها الفعلي معلقاً بقيام ذلك المجتمع.. ويبقى الالتزام بها قائماً في عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلي ويتحرك في وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامي ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين في وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك في الربوبية)[2].

١٥ ـ وأخيرا فإن هذا يكشف لنا سر سعي سيدنا يوسف للإمارة في نظره، لأنه كان يعيش في مجتمع جاهلي، لا تنطبق فيه قاعدة عدم تزكية النفس، فيقول: (ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم في موقف يوسف ـ عليه السلام ، إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية. كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي)[3].

* * *

---

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٠١١/.
(٢) في ظلال القرآن /٤/٢٠١٣/.
(٣) في ظلال القرآن /٤/٢٠١٣/.



وبعد هذا التصور الصارخ العدواني الظالم، إليك التعقيب:

١ ـ ما زال كل ذلك الكلام منطلقا ومبنيا ومستصحبا وقائما على الأصل والركيزة الأولى، التي صنعت عقلية سيد قطب، ألا وهي قضية تكفير المجتمع، ورميه بالجاهلية التي هي شرك، والحكم بانقطاع هذا الدين عن الوجود، والحكم بحتمية الاصطدام به، ومحاربته، لصناعة مجتمع مسلم أصلا.

وقد سبق في الصفحات الماضية أن نقلنا قوله في كتاب: (العدالة الاجتماعية في الإسلام): (وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم ـ على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام ـ لا نرى لهذا الدين «وجودا»، إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر)[1].

وقال في كتاب: (معالم في الطريق): (إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة)[2].

فنحن أمام أطروحة تكفر المسلمين، بل وتحكم بوقوع كفرهم وتحققه منذ قرون مضت، ثم تأتي الخطوة الثانية وهي رفع أحكام الفقه، لانعدام المجتمع الذي يمكن أن تعيش فيه أصلا.

٢ ـ هذه الأطروحة السابقة بكل مفرداتها في غاية الخطورة، لأن

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام /ص١٨٣/ ط: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
(٢) معالم في الطريق /ص٨/.

دعوى انقطاع الدين، وعموم الجاهلية، وانعدام الفقه وأحكامه وفروعه بالتبعية، فيها عدوان على الدين الإسلامي والرسالة المحمدية، التي جعلها الله تعالى خاتمة الرسالات، وجعلها رحمة للعالمين، وجعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، فجعلها سيد قطب أمة كفر وجاهلية وشرك منذ قرون.

٣ ـ كلامه نابع من جهل مطبق وغياب تام لطبيعة هذا الدين، وكيفية المعيشة به في مختلف الظروف والأحوال، فلقد عاش المسلمون بالإسلام ثلاث عشرة سنة في مكة وهي تعاديهم وتعادي الدين تماما، وعاش المسلمون بهذا الدين في الحبشة في وسط يخالفهم لكنه لا يعاديهم بل يرحب بهم، وعاش المسلمون بهذا الدين في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ، فكانوا أقلية في وسط متعدد، فيه اليهود والأوس والخزرج وأكثرهم على غير الإسلام، وعاش المسلمون بهذا الدين في العهد المدني الثاني بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، والمسلمون حينئذ أكثرية، فحصلت التعددية، واتسع المسلمون لغيرهم، وانفتحوا عليهم، فقدم لنا هذا الدين النماذج الأربعة للمعيشة بالدين في أوساط مختلفة، وأجواء متغايرة، فيأتي هذا الفكر القطبي ليدعي أن دين زال أصلا، وأنه قد انقطع.

٤ ـ رمي الفقهاء بالخمود والركود عدوان كبير على تاريخ العلم في الأمة الإسلامية، وغياب تام عن رصد حركة الفقهاء، وكيف رصدوا وتتبعوا وراقبوا وفتشوا ونقبوا عن كل نازلة أو كائنة أو حادثة أو واقعة طرأت في ديار المسلمين، ثم اجتهدوا في تصويرها وتكييفها وفحصها، حتى استخرجوا لها حكما شرعيا، لكمال بصرهم بالشرع الشريف ومقاصده

وأدواته، وقد جمع الشيخ محمد أبو المزايا الكتاني كتابا اسمه: (طبقات المجتهدين)، جمع فيه نحو خمسة آلاف مجتهد، عبر طبقات الأمة، مما يدل على أن هذا الشأن لم ينقطع، ولم يغلق بابه في أي زمن، ولا جيل.

٥ ـ التعدي على مقام نبي الله يوسف، والادعاء بأنه عاش في زمن جاهلي، ترتفع فيه الأحكام الفقهية، ولا يخاطب هو بها لأن الفقه وأحكامه لا تعيش في فراغ، جهل كبير بمقام نبي كريم، لا يحتكم إلى فقه سابق، بل يأتي إليه الوحي في كل نازلة بالبيان الإلهي.

٦ ـ سيدنا يوسف عليه السلام لم يطلب الإمارة، ولا سعى إليها، والاستدلال بقوله ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[١] غلط كبير في فهم جهة الدلالة، وغياب عن سياق القرآن، وتحميل لدلالات القرآن وتصرفات الأنبياء لأوهام وأفهام حائرة في أذهانهم هم، فيسقطونها على تصرفات أنبياء الله ودلالات القرآن، فيستنطقون القرآن بما لم ينطق به، ويقولونه مالم يقله، ويجعلون تصوراتهم المسبقة حاكما وقائدا، وهذا كله غلط عظيم.

٧ ـ مفتاح فهم الآية الكريمة ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] هو العلم، حيث وصف الله تعالى يوسف بالعلم في عدد من الآيات المتتالية، ولما ظهر مقتضى علمه المبهر بتصريف شئون الزراعة وإدارة الأزمة في حادث المجاعة، شهد له الشعب المصري العريق في الزراعة بأنه أوتي فهما وعلما وخبرة يندر وجود نظير لها، فأرسل إليه الملك مرارا يطلبه

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٥.

ويوسف يأبى، فلما قابله الملك عرض عليه من المناصب ما يشاء، فاكتفى يوسف بعد إلحاحهم بأن يكون وزيرا أو مستشارا للاقتصاد، فلم يطلب الإمارة أصلا، ولم يسع إليها قط، بل دعي وطُلِب إليها، وعرضت عليه بإلحاح وكان يأبى، وسيأتي شرح ذلك بتفصيل وتطويل لتبديد الخطأ في فهم هذه الآية الكريمة.

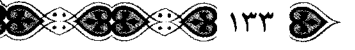
* * *

وإليك دراسة وافية حول قضية التمكين، من خلال عقل الأزهر الشريف، ومناهج الاستنباط عنده:

ـ عبر الله تعالى بكلمة التمكين مرات في حق المؤمن والكافر، وفي الأمم السابقة، وفى حق البشرية عموماً، وحيث تكلم الله تعالى عن التمكين جعله منسوبا إليه هو سبحانه، فنلاحظ أن الله تعالى في كل المواضع التي تكلم فيها عن التمكين جعلها تصرفاً إلهياً، وليس تكليفاً بشريا، إنه معنى يصنعه الله، وليس حكما تكليفياً، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1].

ومعنى التمكين هنا هو أن الله تعالى هيَّأ في هذا الكوكب الأرضي مجال الجاذبية، ودرجة الحرارة والطقس بطريقة معينة، وأوجد الغلاف الجوي والأشجار، وعملية البخر والسحاب والأمطار، وجريان الأنهار، ووجود الزروع والثمار، فسمى الله هذا الخلق الإلهي بالتمكين، حيث لم يجعلنا سبحانه نقيم على المريخ ولا على الزهرة ولا على القمر؛ إذ لم

(١) سورة الأعراف، الآية ١٠.



يوجد في تلك الكواكب والأجرام أمثال هذه العوامل، فما أجراه الله في هذا الكون من تمهيد وتصرف إلهي سماه تمكينا للإنسان.

- بل جعل الله تعالى التمكين شيئا يحدث مع غير المسلم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾[1]، فانظر مقدار النعم والثروات الطبيعية التي هيأها الله لهم، وجعل عندهم وفرة من الأمطار، فتوجد الغابات، وتنشأ الزراعة، وتوجد ثروة سمكية، ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾[2]، فما زالت الثروات تتراكم عندهم، مما يعني وجود وفرة ورخاء، فهذا كله من صور التمكين، لكن هذا التمكين ليس مقيدا ولا مرتبطا بالإيمان، بدليل قوله سبحانه بعدها: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[3]، فهناك ثروات تملأ الأرض، وهناك برامج، وخطط عمل، وهناك تنفيذ، فيقع شيء اسمه التمكين، لكن هذا التمكين قد يوجد مع الإيمان، كما يوجد مع عدم الايمان، فهؤلاء قوم ليسوا بمسلمين، ولكن عبر الله تعالى عما آتاهم من تصرف وجاه ونفوذ دولي وأممي وسياسي في زمانهم بالتمكين، وأنه سبحانه هو الذي آتاهم ذلك بتصرف إلهى محض.

ويقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٦.
(٤) سورة الحج، الآية ٤١.

ويقول أيضاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(١).

إن فكرة التمكين في حق الأمم مثلها كمثل فكرة المحبة والمودة في حق الأشخاص، أي لا يمكن أن نُكلف إنسانا ونقول له اصنع محبتك في قلوب الناس، بل نقول له: أحسن معاملة الناس، وخالقهم بخلق حسن، وأنصفهم من نفسك، وحينئذ يلقي الله محبتك في قلوبهم، وقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»(٢).

فالذي نستطيع تكليف الإنسان به هو مجموعة من الأحكام الأخلاقية السلوكية التي يمكن أن يفعلها بطريقة ناجحة، فيوجد الله له القبول، أو تصدر عنه بطريقة صادمة، فتزيده بغضاً في قلوب الناس، لأنه متكلف ومتصنع ومتعالٍ، يفتخر على الناس بسلوكه الطيب.

فكيف إذا جاء إنسان ثم قال سأسعى لإيجاد محبتي في القلوب، ويضع لذلك خططا وإجراءات، ويقاتل عنها، فكذلك فعلت التيارات في قضية التمكين.

---

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) صحيح البخاري /٢/٦٢٩/، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.

وقد أمر الله تعالى الناس بعبادته وتوحيده، والإيمان به، ثم أمرهم بالعمران والحضارة والرخاء، وإكرام الإنسان، وبحفظ الأنفس والعقول والدماء، وتحرير العقول من الجهل، فإذا نحن كأمة قمنا بهذه الوظيفة بين الأمم مع احتكام الاقتصاد واستقرار نظامنا السياسي ونمو فكرنا التعليمي سيوقع الله لنا بين الأمم ما يسمى بالتمكين.

وفى الحقيقة فإننا عندما نغوص داخل النور القرآني الذي يتحدث عن التمكين، فإننا نجد أن ما سبق هو عُصارة عُصارة ما يمكن أن ينتجه العقل العلمي في الأزهر الشريف، المحتكم إلى الأصول والسنن الإلَهية والقواعد الفقهية وآداب تحليل آيات القرآن وجمع الآيات التي وردت في نفس الموضوع على بصيرة.

* * *

ومثال ذلك: سيدنا يوسف فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

فأين التمكين، وقد اشتروه ليكون عبداً؟

إنه تصرف إلهي، حيث جعل الله إلقاءه في الجب، الذي أفضى به إلى الرق، حتى يُحمَلَ إلى مصر، ليحتك معرفياً بالناس الذين سيتحدثون

(١) سورة يوسف، الآية ٢١.

مع الملك، فيشيع له صيت رفيع بالعلم والمعرفة، مما يجعل رجال الإدارة يسعون سعيا إلى استقطاب خبرته، والانتفاع بمعرفته، فجعل الله هذا المسار الذي يوصل صيته إلى الملك، وما تمتع به يوسف من خبرات معرفية جعلت الملك يلجأ إليه هو التمكين.

فالتمكين ثروة معرفية تُجبر الآخرين على احترام خبرتك والاستعانة بما عندك من خبرة، وانظر إلى هذا السياق: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[(١)].

أي أفتنا أيها الخبير العالمي في إدارة شئون الممالك والدول، كيف نفسر هذه القضية: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[(٢)]، ففسرها يوسف، وحولها إلى خطط عمل، فكان التمكين في حقه ثروة معرفية، مكنته من بعد النظر، والتوقع المستقبلي للأزمات، وسبل حلولها والتعامل معها، وعندما أدلى يوسف عليه السلام بهذه الخبرة، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[(٣)]، فأوقع الله له القبول، فطلبه الملك بوصفه خبرة معرفية نادرة، فلما كلمه فوجئ بعقلية اقتصادية من الطراز الأول، فقال له: ﴿قَالَ

(١) سورة يوسف، الآيات من ٤٤ ـ ٤٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٤٦.

(٣) سورة يوسف، الآية ٥٤.

﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1]، فترتب على ذلك: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2]، فانظر كيف كان التمكين.

ثم تأتي التيارات المتطرفة لتقتطع عبارة: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وحدها، معزولة عن كل هذا السياق السابق، ثم يقولوا: إن هذه الآية تفيد مشروعية السعي إلى السلطة.

والخلاصة هنا: أن يثبت الإنسان ذاته معرفياً وأن يري الوطن منه خبرات تجعل الكل يقول له أنت حَلَّالُ العقد، وتفضل بتسيير الأمور أياً كان توجهك، وذلك فقط لكونك خبيرا وعالما ومتمكنا من معارفك.

فالتمكين تصرف إلهي محض، يصنعه الله تعالى، ويوجده، ونحن مكلفون ببرامج عمل، منها عمارة الأرض، وبذل الجهد، وتنمية الخبرات العلمية، وبناء البلاد والأوطان، وعبادة الله وتزكية النفس، فإن نجحنا في كل هذه المقدمات والبرامج العملية، ألقى الله تعالى لنا سمعة عالمية تشيع في العالم من حولنا، ويمكن أن تسمى حين إذن بالتمكين، وهذا التمكين في حق الأمم والشعوب مثل المودة والمحبة في حق الأفراد، يوجدها الله في القلوب، ونحن فقط نسعى في أسبابها ومقدماتها.

ـ وأول مفتاح من مفاتيح مفهوم التمكين في حق سيدنا يوسف هو مفتاح العلم، حتى تكرر هذا المفتاح مرات كثيرات، فاسمع قول سيدنا

(١) سورة يوسف، الآية ٥٤.
(٢) سورة يوسف، الآية ٥٥.
(٣) سورة يوسف، الآية ٥٥.

يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[1]، فتعليم الأحاديث مفتاح معرفي مهم.

ثم جاء قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2]، حتى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾[3]، فجاء مفتاح العلم مرة ثانية.

ثم قال سبحانه بعدها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[4]، فتكرر هذا المفتاح العلمي في حقه مرة أخرى.

ثم قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾[5]، فتكرر هذا المدخل والمفتاح العلمي للمرة الرابعة.

ولعل هذا هو السبب في تقديم العلم على الحكمة في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[6]، وفي آيتين أخريين من السورة، لأن تمكين يوسف عليه السلام نابع من مقتضيات العلم الإلهي الذي أفاضه الله عليه، بخلاف قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ

(١) سورة يوسف، الآية ٦.
(٢) سورة يوسف، الآية ٢١.
(٣) سورة يوسف، الآية ٢١.
(٤) سورة يوسف، الآية ٢٢.
(٥) سورة يوسف، الآية ٣٧.
(٦) سورة يوسف، الآية ٦.

﴿رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، حيث قدم الحكمة هنا على العلم؛ لأن إكرامه بالولد مع كبر السن من مقتضيات الحكمة الإلٓهية.

ثم وقعت الواقعة الجليلة التي أبرزت ما عند يوسف عليه السلام من خبرات ومواهب، وملكات، وثروة علمية ومعرفية، جعلت الشعب المصري بأكمله في ذلك الحين، والإدارة القائمة في البلاد هي التي تقول له: أدركنا بأبعادك المعرفية، وأخرج لنا من مناجم المعرفة والعلم الموجود عندك بعض الإجراءات والخطط التي تنقذ البلد من خطر اقتصادي داهم.

وقد رأى الملك سبع بقرات ثمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾[2]، فنحن في حاجة إلى خبرة معرفية تشرح لنا رموز هذا الحدث المستقبلي المقبل، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[3]، فما كان عندهم بعد معرفي يسعفهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[4]، فنفوا العلم، مما يؤكد النظرية القرآنية في التمكين وأن مفتاحها في حق سيدنا يوسف قائم على أساس العلم الذي تمتع به، ووهبة الله له.

ثم ظهر افتقاد هذا الأساس عند المجتمع في ذلك الحين، في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ

(١) سورة الذاريات، الآيات ٢٨ ـ ٣٠.
(٢) سورة يوسف، الآية ٤٣.
(٣) سورة يوسف، الآية ٤٣.
(٤) سورة يوسف، الآية ٤٤.

سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[(١)].

حيث نص الرجل المرسل إلى يوسف هنا على أن وجه احتياجهم إلى يوسف هو افتقادهم للسر العلمي المعرفي الذي سبق لهم عند احتكاكهم به أن رأوه فيه على نحو مبهر.

فانظر كم تكررت كلمة العلم في هذا السياق؟

فبدأ يوسف عليه السلام يظهر العلم المبهر، والحلول الفائقة للأزمة الاقتصادية: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾[(٢)] خطة سبعية، ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾[(٣)]، فظهرت الحاجة إلى خطة زراعية واسعة، وخطط في التخزين، ومقادير محددة في الإنفاق والترشيد.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾[(٤)]، فدلهم على خطة تؤمن لهم غطاء من القمح، بحيث بقيت بقية مما يحصنون بعد مرور الأزمة وانتهائها، فالغطاء الذي وفره لهم تجاوز بهم الأزمة، ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾[(٥)].

ولاشك في أن نصيحته لهم بالزراعة قد كانت ملفا عمليا، خضع للنقاش، وجرت فيه تفاصيل، لم يذكرها القرآن على عادته القويمة في

---

(١) سورة يوسف، الآيات ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة يوسف، الآية ٤٧.

(٣) سورة يوسف، الآية ٤٧.

(٤) سورة يوسف، الآية ٤٨.

(٥) سورة يوسف، الآية ٤٩.

الاكتفاء بالنتائج والمسائل الكلية، وتلخيص المقدمات، وطي المسالك التفصيلية، من الكلام عما جرى بينهم وبين يوسف عن طريقة الزراعة، ونوعية المزروعات والمحاصيل الحيوية التي لابد منها لاجتياز الأزمة، وما الذي يتم تأخير زراعته إلى حين اجتياز الأزمة، وما هي الساحات والمساحات التي لابد من العمل على تشغيلها، والأيدي العاملة، ومتطلبات الزراعة من ري وفلاحة، وهذه خبرة يوسفية عميقة، في صميم خبرة الشعب المصري العريق، الخبير بالزراعة، والذى يعيش سبعة آلاف سنة على ضفاف النيل، فلما استمع المصريون إلى هذا السيد المؤيد، وما أشار به من خبرات وتوجيهات في النواحي الزراعية لاشك أن هذا أصابهم بدهشة بالغة، حيث تحداهم وأتى لهم في صميم خبراتهم بتوجيهات تفصيلية عجيبة، بنور الوحي والنبوة.

ثم قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[١]، أي باستنفار وتشمير وتعبئة، حتى تكون كل المواسم المتعاقبة يتراكم فيها القمح.

ثم قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾[٢] فهذا إجراء آخر، وهو ملف عمل يقوم خبرات الحصاد، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾[٣] فهذه خبرات أخرى في التخزين، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[٤].

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا

(١) سورة يوسف، الآية ٤٧.
(٢) سورة يوسف، الآية ٤٧.
(٣) سورة يوسف، الآية ٤٧.
(٤) سورة يوسف، الآية ٤٧.

﴿تُحۡصِنُونَ﴾[1] فشرح لهم طريقة معينة للتخزين تجعله مدخرا سبع سنين، مع كيفيات في الإنفاق وصرف المقادير المحددة التي تجعلنا نجتاز السنوات السبع، ونوفر به لأهل الشام والأقطار المجاورة، ويتبقى من بعد ذلك أيضا رصيد زائد.

فهذه خبرة في مجالات وبرامج عمل شديدة الغرابة لا يعهد مثلها في شعب عريق في هذا الفن، خبرة اقتصادية بوضع الخطط، وخبرة بفنون الحياة، وخبرة في التخزين والزراعة والحصاد، وفنيات دقيقة عند شعب خبير بالمسألة.

فلما ظهر هذا البعد المعرفي، ووصل الى مراكز صنع القرار، بدأوا هم يسعون إليه، وسبقه صيته العلمي، الذي تمس حاجة البلاد إليه، وليس عندهم خبير يقوم به، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾[2] فرفض، ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾[3].

فألح الملك في طلبه، وأرسل إليه مرة ثانية: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾[4].

فيوسف عليه السلام لم يطلب الإمارة، ولم يسع إليها، والتمكين الذي شرحه الله في حقه إنما هو إقرار من كل بيوت الخبرة ومراكز صنع القرار في زمنه

(١) سورة يوسف، الآية ٤٨.
(٢) سورة يوسف، الآية ٥٠.
(٣) سورة يوسف، الآية ٥٠.
(٤) سورة يوسف، الآية ٥٤.

بأن هذا الرجل عنده خبرة علمية نادرة، نحن في أشد الحاجة إليها.

ولذلك لما جلس معه الملك وكلمه وسمع منه أبعاد أفقه الواسعة وخبراته العميقة: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1]، قال له ذلك بعد ما عرض عليه ودعاه إلى مقابلته عدة مرات وهو يرفض، فهو إذن لم يسع إلى الحكم؟

ولم يكن عليه السلام يتنبأ أو يتكهن المستقبل، بل كان خبيرا، بعيد النظر، عنده رؤية استراتيجية، يستطيع أن يستشفها من عشرات القرائن والملابسات، فهذا فقه توقعي مستقبلي.

ولعلك تسأل: هل نحن أمام خبرة نبوية خالصة؟ أم هي ببذل الجهد والبحث والدراسة؟ والجواب أننا نتكلم عن سيدنا يوسف، الذي تربى في بيت النبوة، وقد تراكمت أنوارها في بيتهم عبر أربعة أجيال، فهو نبي كريم، ابن نبي كريم، ابن نبي كريم، ابن نبي كريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد سماه رسول الله ﷺ: «**الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم**»[2].

وهذه البيوتات العريقة النسب في العلم والولاية والزعامة والقيادة، ينشا فيها الصغير وقد تحنك وتمرس بالخبرة من صغره، فلو أنه نشأ بعيدا عن مرتبة النبوة لكان زعيما قائدا.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥٤.

(٢) صحيح البخاري /٩٤٩/٢/، كتاب التفسير، سورة يوسف، باب ١، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.

وهذا الذي كان سائدا في أعراف ذلك العصر، فتجد عددا من ملوك الأسر الفرعونية يتسلسل الملك فيهم جيلا من وراء جيل، وكان توت عنخ آمون قد مات وعمره بضع وعشرون سنة، وهو من أشهر ملوك التاريخ رغم صغر السن، لكنه نشأ في بيوت ملك وزعامة.

فما بالك برجل على نفس هذا المنوال، مع أنه من صغره وحداثة سنه قد تراكمت فيه علوم أجيال من الأنبياء، ويرجع أهل الشام جميعا وأهل تلك البقاع الى آبائه للفصل في الأحكام والقضايا، ثم يضاف إلى ذلك ما أكرمه الله به من عنصر النبوة ونورانيتها.

فنشأت عند يوسف عليه السلام بذرة العلم، وخبرة القرون، وخلاصة زعامة بيوت آبائه وأجداده، وخبرات أجيال من الفصل بين الناس ومعرفة سنن الله في الكون.

فهذا النموذج اليوسفي المعرفي الممتلئ بالخبرة والعلم والدراية والفهم، بحيث لجأ إليه كل أرباب الإدارة في الدولة المصرية، يذكرنا بالقاعدة الأصولية المشهورة: (الأصل في أفعال الأنبياء العموم إلا أن يقوم دليل على التخصيص)، فهناك أمور وشون نبوية قام الدليل على اختصاصهم بها، وبقية الأفعال النبوية في المناسك والإدارة والمهن ومكاتبة الملوك والرسائل، فإن الأصل فيها أنها صدرت عنهم لتكون منهجا وتعليما، لكن نحن نصنعها بالخبرة والتعلم والمران والتدريب، وهم يصنعونها بتعليم إلـهي.

فكل هذه الأفعال التي هي من قبيل الخطابة والإفتاء والقضاء والإدارة

والمهن والصنائع وإدارة الأموال ومكاتبة الملوك مما يشكل جانبا دبلوماسيا في السيرة النبوية فالأصل فيه أنه تصرُف نبوي أبرزه الله لكي يكون نموذجا يتبَع، ونحن نطبقه ونجمع له الأدوات وآلات.

وهذه القاعدة في أنبياء الله جميعا، وسيدنا يوسف كذلك، فأظهر خبرة زراعية تبهر شعبا عريقا في الزراعة، وأظهر عددا من التدابير والمشورات والإجراءات، اجتازت بالبلد أزمة اقتصادية طاحنة، فهذا التصرف ما هو مصدره عنده؟! مصدره النبوة والخبرة معا، ويكون قد وضع بين أيدينا نموذجا قابلا للتطبيق؛ إذ الأصل في أفعال الأنبياء أنها للعموم وللتطبيق، إلا التصرفات النادرة التي تعرف انها من خصائصهم.

* * *

ـ وهذا هو السبب في أن الله تعالى أبقى لنا تلك اللمحة وهذه المشاهد المقتطفة والمنتقاة من حياة يوسف عليه السلام، مع أن حياة سيدنا يوسف مثلا كانت ستين أو سبعين سنة، فكان يمكن أن يتم تسجيل عشرات المواقف منها، فأنسى الله البشرية بقية عمره الشريف، وأبقى لنا هذه الومضات، لأنها منهج تعليمي، حصل عند يوسف عليه السلام بالموهبة والنبوة، ونحن مطالبون بتنفيذه، ويمكن الوصول إليه من طرفنا نحن بالخبرة والدراسة، والمعرفة والموهبة والبحث العلمي وبناء الكوادر العلمية وهكذا، كما أنه ـ ﷺ ـ قال: «**خذوا مني مناسككم**»[1]، أي أنني سأنفذ

(١) صحيح مسلم /٢/٩٤٣/، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله ﷺ لتأخذوا مناسككم.

مجموعة من المناسك في الحج أمامكم، بغرض أن تلاحظوها وتطبقوها وتتوصلوا إليها بالخبرات المعروفة عندكم.

فكأن يوسف يقول: خذوا عني مجموعة خبرات التفاعل مع الإدارة، التي جعلت مني شخصا موثوقا، يُفسَح له المجال، وحاولوا أن تطبقوا نفس الطريقة بما يناسب ظروفكم وعصركم ومجتمعكم وسقفكم المعرفي وظروف زمنكم، حتى نقوم بواجب زماننا كما قام نبي الله يوسف عليه السلام بواجب زمانه، وبهذا يتولد بين أيديكم أثر اسمه التمكين.

فلما جاء الرجل يسأله أن ملك هذه البلاد رأى مناما ملخصه كذا وكذا، هل لك أن تضم إليه درايتك بالمجتمع، وبصيرتك بمآل طريقة إدارته، مع ما يفتحه الله لك بنور النبوة، أفادهم بأنه سيعطيهم خلاصة، ويرفع لهم تقريرا، ويقدم لكم مقترحات بالحلول.

والمقترحات المذكورة لا يقوم على تنفيذها يوسف فقط، بل هي توجيهية للمجتمع، وقد طبقها المجتمع فنجحت.

* * *

ولم يقتصر التمكين في حق يوسف عليه السلام على الجانب المعرفي وحده، بل تعددت وجوه المعارف التي أضافها إلى الحضارة المصرية العريقة، حيث أبرز خبرة قانونية نادرة، وتعديلا تشريعيا أضاف إلى منظومة القوانين المصرية في ذلك الزمن، فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟

وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾[1]، فرد إخوة يوسف بقولهم: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾[2]، أي لو أن التهمة ثبتت على شخص من طرفكم، ودلت القرائن والتحريات الصحيحة أنه مدان، فما الحكم الذي ترضونه، فإذا بإخوة يوسف لشدة الثقة قالوا: إن ثبتت التهمة في أحد منا يصادر ويعد أسيرا، ﴿قَالُواْ جَزَاؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَاؤُهُۥ﴾[3].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[4]، فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[5]، والمعنى: أن سيدنا يوسف في حاجة إلى خبرة أخيه لإدارة ملفات اقتصاد الديار المصرية، وأنه عندما شرع يدير الأمور، وضع لهم خطة، وبدأت كوادر بشرية كثيرة منهم في التنفيذ.

لكن آل الأمر إلى ملف عمل، وأقدر شخص على أن يديره هو أخوه، فترقب وصول وفد إخوته، وعرف بوصولهم، فشرع في صناعة إجراء قانوني غير معهود في الأعراف والقوانين المصرية، وهذا الذي أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[6]، أي أنه لم يكن

(١) سورة يوسف، الآيات ٧٠ ـ ٧٢.
(٢) سورة يوسف، الآية ٧٣ ـ ٧٤.
(٣) سورة يوسف، الآية ٧٥.
(٤) سورة يوسف، الآية ٧٦.
(٥) سورة يوسف، الآية ٧٦.
(٦) سورة يوسف، الآية ٧٦.

معهودا في القوانين والتشريعات القائمة في مصر في ذلك الحين أن من ضبطت عنده هذه القضية أن يصادر ويحتجز في مصر، لكن يوسف وهو مستشار اقتصادي في ذلك الحين قدر أن أقدر الأشخاص على إدارة تلك الجزئية هو أخوه، ليعبر بالبلد إلى بر الأمان.

فما هي الحجة والسند القانوني الذي يستبقى به أخاه، فجعلهم هم ينطقون بالحكم الذى يؤدي إلى تحقيق المقصود، استنادا إلى ما يعرفونه هم من شريعة أبيهم إسحاق، وجدهم إبراهيم؛ إذ كان المعهود في شرعهم هو هذا، فأحالهم إلى أن ينطقوا بالتشريع الذى يرضون هم بالتحاكم إليه، وهذا نظام قضائي يمنح فيه للمتهم أن يختار الدائرة التي يحب أن يتحاكم إليها، ويختار العقوبة، وإذا ثبت بمجموع ذلك وصدر منك الإقرار به فإننا ندخل تشريعا قانونيا على القوانين المعروفة في هذه البلد، فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[1] أي لم يكن معروفا في قوانين الديار المصرية أن يجري الحكم بمثل هذا، فقال الله تعالى بعدها: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2]، فتكرر مدخل العلم، لأنه مفتاح قضية التمكين في حق يوسف عليه السلام.

ـ فأساس التمكين لسيدنا يوسف يرجع الى مفتاح العلم الذي لما أن بدأ يتدفق به، ويبدي الاستشارات والتقارير والخبرات في ملفات الزراعة والحصاد والتشريعات قانونية والإدارية للبلد، جاءت إليه إدارات البلد

(١) سورة يوسف، الآية ٧٦.
(٢) سورة يوسف، الآية ٧٦.

لتقول له: يسعدنا أن نتعاقد معك، لتكون خبيرا مفوضا، ووزيرا، ومستشارا، في الديوان الملكي، وهو يردهم عن نفسه عدة مرات.

* * *

والخلاصة أن سيدنا يوسف عليه ما سعى إلى طلب الإمارة، ولا طرق باب أحد يطلبها منه، وأن قوله ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] لم يكن قولا ابتدأ هو به السعي، بل إنهم لجأوا إليه مرارا، وسألوه الخبرة في تصريف شئون مصر، بناء على ما عرفوه فيه، وعهدوه منه، من خبرة عجيبة، استنارت بنور الوحي، حتى أسعفهم بإجراءات اجتياز الأزمة، ثم أرسل إليه الملك يطلبه فرد رسوله، ثم أرسل إليه ثانية، فلما قبل يوسف لقاءه بعد إلحاح من الملك، وعرض عليه الملك أن يتبوأ لمكان الذي يريد، اكتفى يوسف عليه السلام بأمر جزئي وهو تصريف شئون الخزانة، وما قال له أنا نبي وأنت ملك على غير هذا الدين، فدع لي المكان، بل قبل بعد إلحاح أن يدير شئون اقتصاد الدولة.

فإذا جاء بعد هذا البيان من يفسر الآية الكريمة بأنها دليل على جواز أن يتحايل الناس للوصول إلى الحكم بمختلف الوسائل والطرق، ويسلكون إلى ذلك كل مسلك، ويجعلون هذا هدفا عظيما، فهذا اجتراء على الشرع، وإلصاق لفهم مخطئ بالقرآن الكريم.

* * *

(١) سورة يوسف، الآية ٥٥.

وهناك نموذج ثان للتمكين، وهو نموذج ذي القرنين، الذي وصفه الله تعالى بالتمكين عدة مرات، قال سبحانه: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] فما هو أساس ذلك التمكين؟ قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[2]، فهو لم يطلب التملك؛ بل آتاه الله من كل شيء سببا، أي هيأ له الأسباب والمصادر والمقومات والموارد، حتى صارت له رحلة لمطلع الشمس، إلى أقصى ما يمكن أن تصل له الجيوش والعتاد باتجاه المشرق، والرحلة معناها خبراء بالبحار، ورجال وجنود، ومؤن وخرائط، وخطوط تموين وتزود، وقوة إدارة على مواجهة البحار، تجعل البحارة يمتثلون، ورحلة إلى المغرب، ورحلة إلى مكان سماه الله بين السدين، وقد وقف فيه المفسرون يبحثون عن معناه، وعن مكانه الآن في العالم.

والقرآن يكلمنا عن تصرف بشري وقع في فترة تاريخية، وهو بلا شك موجود على بقعة معينة من الكرة الأرضية الآن، فأين مكانه؟ فبدأ هارون الرشيد يمول رحلات لخبير اسمه سلام الترجمان، ليذهب إلى بعض الأصقاع في أقصى شمال الكرة الأرضية للتنقيب عن بقايا السد الذي بناه ذو القرنين.

هذا العلم الذي هو التفتيش عن مكان أشار إليه القرآن الكريم أو غيره من النصوص المقدسة بدأ يعتني به الأوربيون للتفتيش عن الآثار المكانية

---

(١) سورة الكهف، الآية ٨٣.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٨٣ ـ ٨٤.

الموجودة في الكتاب المقدس، فبدأ يظهر علم اسمه الأركيولوجي، أو علم حفريات الكتاب المقدس، ومعناه أن التوراة ذكرت مكانا معينا، أو أثرا معينا، فيتم تمويل حملات تنقيب تذهب لذلك المكان، وتحاول أن تنقب عن الأثر المذكور هنا، أو تجد أي شاهد من حفريات يدل عليه، والقرآن يشير لهذا، فيقول مثلا عن سفينة نوح ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1]، أي: سأبقيها آية حتى تأتي الأجيال وتحفر وتنقب وتجدها.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾[2]، يصف الله قرى قوم لوط وأنكم تمرون على بقاياهم وآثارهم ذهابا وإيابا، صباحا ومساء، فانتبهوا.

فبدأ علماء الإسلام يسألون: أين ذو القرنين حتى نرى مبلغ التمكين الذي كان فيه.

وهناك رحلة تاريخية مشهورة، مولها الخليفة الواثق بالله، وكلف سلام الترجمان أن يذهب إلى بقاع القوقاز، والأصقاع الباردة في أقصى الشمال الأسيوي ناحية سيبريا، ليرى المشاهدات الجغرافية التي ينبغي أن يسجلها حول سد ذي القرنين، فرحل إلى هناك، وقد سجل في هذا رحلة أوردها الشريف الإدريسي في (نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق)[3]، وقبله ابن فضل الله العمري في كتاب (المسالك والممالك) وهي موثقة في

---

(١) سورة القمر، الآية ١٥.

(٢) سورة الصافات، الآية ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق /٢/٩٣٤/، ط: عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩م.

كتب التاريخ، وعدد من المستشرقين لما درسوا هذا النص التاريخي وتأملوا البقاع والأماكن التي وصفها، وهم خبراء في الجغرافيا، قالوا: هذه الرحلة بمعايير البحث العلمي صادقة، والمستشرق الروسي كراتشوفسكي له فيها بحث، والمقصود أنها حظيت باهتمام، وكان من المعاصرين العلامة الكبير أبو الكلام آزاد، وزير الثقافة الهندي الأسبق، وكان معنيا بما أسميناه حفريات القرآن الكريم، بالتوازي مع حفريات الكتاب المقدس التي تمت في نهر الأردن وفي البحر الميت وفي بقاع من فلسطين.

فكان العلامة أبو الكلام من أكثر العلماء المعنيين بهذا الجانب، وأجرى بحوثا حول مكان سد ذي القرنين، وأورد هذا البحوث مع عدد من مقالات: الدكتور عبد المنعم النمر، وزير الأوقاف المصري السابق في السبعينات، حيث له كتاب كامل عن أبي الكلام آزاد، أورد فيه بحوثه عن ذي القرنين وسده.

وخرج من الباحثين باحث، وهو عضو في مجلس الشورى السعودي، اسمه حمدي حمزة أبوزيد، فأخرج كتابا اسمه: (فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج)، له فيه بحث ورحلة وتمحيص ونزول إلى الوثائق الصينية، وله قناعة معينة قد تكون محل نظر، وهي أن ذا القرنين المذكور هو إخناتون الملك الفرعوني الموحد، وعلى هذا الكتاب مؤاخذات جمة، وبعض المتخصصين في الفرعونيات يقولون هذا كلام غير دقيق، فلم يذكر في التاريخ والبرديات رحلات لأخناتون بهذه الصورة إلى المشرق والمغرب، لكن الكتاب خطوة على الطريق على كل حال.

والذي يعنيني في القضية: ما مفهوم التمكين الذي وصف الله به هذا

السيد الجليل، يقول: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1]، فجعل الله التمكين وصفا نهائيا لمجموع أنشطة ذي القرنين، وليس من أنشطته نشاط محدد اسمه التمكين، بل إن الرجل بذل نشاطا تاريخيا وإداريا، ومجموع هذه الأنشطة يسمى التمكين، فيقول الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[2]، فهذا مبحث متعلق بأهل المغرب.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[3]، ثم تجوز الله وأجمل في أخبار رحلته إلى أقصى ما يمكن الوصول إلى من الأرض المعمورة تجاه الشرق، ثم وصف الله تعالى شيئا أطال فيه، فقال ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[4]، أي أن الخبرات العلمية والمعرفية عندهم منعدمة، ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾[5]، أي أن الإمكانات التي تحت يدي من المعرفة وأصول الصنعة أفضل وأمكن، وغاية المطلوب هو: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ

---

(١) سورة الكهف، الآية ٨٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) سورة الكهف، الآية ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) سورة الكهف، الآية ٩٤ ـ ٩٥.

(٥) سورة الكهف، الآية ٩٢ ـ ٩٣.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[١].

فمن أين نأتي بقطع الحديد الكبيرة الضخمة، عند قوم لا يكادون يفقهون قولا، فكان لابد من صنعة التعدين، واستخراج المعادن من المناجم، ومد طرق إنتاج من المناجم إلى أماكن التصنيع، فهذه خبرة معرفية علمهم إياها مع قواده في صنعة التعديين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾[٢]، فهذه خبرة معمارية، حيث توضع لبنات البناء بطريقة معينة، حتى تملأ فراغا معينا بين هضبتين، إنها خبرة هندسية متراكمة.

ثم إنه: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[٣]، فهذه المناهج المعرفية التي لخص القول فيها بقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[٤]، أي قوة عاملة للتنفيذ، مع همة منكم في اكتساب هذه الخبرات.

ولعل هذه هي الحكمة في خواتيم سورة الكهف، وبعدها بصفحة قال في أوائل سورة مريم: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[٥]، فهذا نمط آخر من القوة، ليلفت نظرنا إلى تلخيص قوة المعرفة والابتكار، مع قوة الإتقان في التنفيذ، ونتيجة هذه العلوم والمعارف هي التمكين.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) سورة الكهف، الآية ٩٦.

(٣) سورة الكهف، الآية ٩٦.

(٤) سورة الكهف، الآية ٩٥.

(٥) سورة مريم، الآية ١٢.

- **والخلاصة** أنه يمكننا أن نلخص مفهوم التمكين الوارد في القرآن الكريم في كلمة واحدة، ألا وهي: العمران، أو الحضارة، أو البناء، أن تكون كل مؤسسات الوطن عاملة ومنتجة، وأن يوجد بحث علمي ناجح، وإنتاج قوي، وعمالة تزول معها البطالة، وأن تقل معدلات فقر، وألا يوجد مُشردون ولا أطفال شوارع، وأن توجد رفاهية، وأن يكون هناك إنتاج ضخم يرجع على البحث العلمي بمزيد من الإتقان والتطوير، وأن يتم إكرام الإنسان، والحفاظ على البيئة والموارد، كل ذلك مع الإيمان، ومنظومة القيم.

ويتبين من كل ما سبق أن استدلال الإخوان وغيرهم من التيارات بآيات التمكين على مقصودهم كان غير سديد، ولا يجري على مسالك فهم القرآن والاستنباط منه، بل يلصق بالقرآن مجموعة أفهام متخبطة، يجب التنبيه إلى وجه الخطأ فيها، صيانة لمعاني القرآن من الانحراف بها إلى ما لا يقصده.

** ** **



(٧)
مفهوم الوطن



الوطن

مقارنة بين الصورة المشوهة للوطن في عقلية التيارات الإسلامية، وبين الصورة الصحيحة للوطن في الفكر الإسلامي وعقلية الأزهر الشريف

* أولا: صورة الوطن في ذهن التيارات الإسلامية:

قامت التيارات والجماعات الإسلامية في الثمانين عاما الماضية بصناعة فكر سقيم، تحاول فيه أن تستخرج وتصنع تصورا عن عدد من المسائل والقضايا الكبيرة، رغم افتقاد تلك التيارات للأدوات الصحيحة في فهم الشرع، بالإضافة إلى جو نفسي متأزم ومختنق ومتوتر، سيطرت عليه أزمات انهيار الخلافة الإسلامية، واحتلال فلسطين، والضغوط النفسية للسجون، فتولد عندهم فقه في غاية التشوه، جعل الصورة المستقرة في أذهانهم لعدد من القضايا والمسائل صورة منحرفة، ومختزلة، ومبتورة.

ومن تلك القضايا الحساسة والخطيرة، التي صنعوا فيها صورة معكوسة ومشوهة قضية الوطن، فلو أننا قمنا بالغوص داخل عقل تلك الجماعات، ورأينا المفردات والمكونات التي تصنع صورة الوطن في أذهانهم، لوجدنا صورة مركبة من عدد من المبادئ الغريبة، حيث تتركب صورة الوطن داخل تلك العقلية من عدد من الأمور، وهي:

ـ الوطن حفنة تراب لا قيمة لها.

ـ حب الوطن انفعال بشري سخيف، لابد من مقاومته والبراءة منه، مثل ميل الإنسان للمعاصي.

ـ رفض فكرة الوطن لأنها في نظرهم مقابل الخلافة أو الأمة.

ـ الأوطان حدود جغرافية صنعها الاستعمار فلا نحبها ولا نتعامل معها.

ـ الأوطان هي المساكن التي ترضونها، والتي ذمها الله.

ـ ليس في الشرع آية ولا حديث تدل على حب الوطن.

ـ الحديث المتعلق بحب النبي لمكة فيه خصوصية لمكة ودها، فلا نقيس بقية الأوطان عليها.

وهذا تعليق سريع على كل فكرة، ننتقل بعده إلى جولة في كلام العلماء الكبار، من المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، والأولياء، والأدباء، التي نرى فيها مقدار رعاية الشرع الشريف لفكرة الوطن، وكيف أن الشرع غرس في نفس الإنسان حب وطنه، وزكى فيه دوافعه الفطرية النبيلة في الانتماء للأوطان وحبها والدفاع عنها، حتى أشار الشرع الشريف إلى نبل انتماء الإنسان لوطنه في عدد من الآيات والأحاديث النبوية.

يقول سيد قطب في: (ظلال القرآن): (إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه، وأرضه التي يدفع عنها هي «دار الإسلام» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجاً للحياة، وكل تصور آخر للوطن

هو تصور غير إسلامي، تنضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام)[1].

وقال أيضا: (ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخوراً متردية، هنا وهناك، من الدهاء، والمراء، والسياسة، والكياسة، والبراعة، والمهارة، ومصلحة الدولة، ومصلحة الوطن، ومصلحة الجماعة.. إلى آخر الأسماء والعنوانات.. فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها.. الدود..!!)[2].

ويقول أيضا: (إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها «القوم» ويسمونها «الوطن»، ويسمونها «الشعب».. إلى آخر ما يسمون. وهي لا تعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون. ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في خلقه، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة!)[3].

ويقول أيضا: (إن الجاهليات تجعل الرابطة آنا هي الدم والنسب وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك. أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية ـ على تفرقها أو تجمعها ـ تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي)[4].

- **أولا: الوطن حفنة تراب لا قيمة لها، قال سيد قطب في: (ظلال القرآن)**: (والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية «الوطن الإسلامي» يغضون من شأن «المنهج» ويعتبرونه أقل من «الموطن»! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات، إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي، فالعقيدة والمنهج الذي

---

(١) في ظلال القرآن /٢/٧٠٨/، ط٤٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
(٢) في ظلال القرآن /٢/٧٥٣/.
(٣) في ظلال القرآن /٣/١٤١٣/.
(٤) في ظلال القرآن /٤/١٨٨٦/

تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الإسلامي، أما الأرض ـ بذاتها ـ فلا اعتبار لها ولا وزن!)[1].

التعليق:

هذا تصوير اختزالي للوطن، حيث إن الوطن في الحقيقة ليس حفنة تراب، بل هو شعب، وحضارة، ومؤسسات، وتاريخ، وانتصارات، وقضايا، ومكانة إقليمية ودولية، وتأثير سياسي وفكري في محيطنا العربي والإسلامي، ورجال عباقرة صنعوا تاريخ هذا الوطن في مجال العلم الشرعي، وفي التاريخ الوطني الحافل بالنضال لحماية هذا الوطن، وفي التاريخ الاقتصادي، والتاريخ العسكري، والديبلوماسي، والأدبي، والفني، وغير ذلك من المجالات التي نبغ فيها العباقرة من أبناء هذا الوطن.

فتجاهل كل هذه المكونات التي تصنع مفهوم الوطن، واختزالها في حفنة تراب، يمثل عقوقا وطنيا، وفهما مجتزئا ومشوها، وتحقير لأمر عظيم.

* * *

ـ **ثانيا:** حب الوطن انفعال بشري سخيف، لابد من مقاومته والبراءة منه، مثل ميل الإنسان للمعاصي.

التعليق:

هذا فهم سقيم، وخلط غريب بين المشاعر الخبيثة الآثمة، التي أمرنا

(١) في ظلال القرآن /٣/١٤٤١/.

الله تعالى أن نتنزه ونتسامى عليها، وبين المشاعر النبيلة، والدوافع الفطرية الراسخة، التي اكتفى الله تعالى بها، واعتمد الشرع على شدة ثباتها في النفس الإنسانية، وأنه بسبب استقرارها وثباتها في النفس فإن الشرع لا يحتاج إلى تقنين تشريع لها، لأن دوافع الطباع تكفي لتوجيه الإنسان فيها إلى المسار الصحيح، ومن هذه الدوافع النبيلة الانتماء والوفاء للوطن.

وهذا المعنى قد أشار إليه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين، حيث قال في كتاب: (الوسيط) في فقه السادة الشافعية: (ولكن في بواعث الطباع مندوحة عن الإيجاب؛ لأن قوام الدنيا بهذه الأسباب، وقوام الدين موقوف على قوام أمر الدنيا ونظامها لا محالة)[1].

فهذا هو العقل المنير، الذي استنار بنور الشرع، وفهم عن الله مراده، واهتدى إلى أن الشرع يكتفي في عدد من المسائل بثبات دوافع الطباع، فلا يأتي فيها الشرع بتشريع أو أمر معين، مطمئنا إلى أن الطبع السليم كفيل بتوجيه الإنسان.

ومن هذه الأمور التي ينتجها الطبع السليم حب الوطن والانتماء إليه والوفاء له، وقد روى الدينوري في كتاب: (المجالسة) من طريق الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول: (إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه)[2].

---

(١) الوسيط في المذهب /٧/٧/، ط: دار السلام، القاهرة، سنة ١٤١٧هـ.

(٢) المجالسة وجواهر العلم /١/٦٠/، ط: دار ابن حزم، بيروت، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

ومن العجيب أن سيد قطب يقر بهذا الشعور الفطري النبيل، فيقول: (إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة. ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين: بالنداء الحبيب القريب: «يا عِبادِيَ»، وبالسعة في الأرض: «إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ»)[١].

وينقل عن أحد العلماء قوله: (والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح، في هبوبها على الأعشاب والأشجار، كل دليل يرى. وحاسة العودة إلى الوطن هذه هي ضعيفة في الإنسان، ولكنه يكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة. ونحن في حاجة إلى هذه الغريزة، وعقولنا تسد هذه الحاجة)[٢].

ويقول عن سيدنا موسى عليه السلام: (لماذا عاد ـ وقد خرج من مصر طريدا ـ قتل قبطيا فيها حين رآه يقتتل مع إسرائيلي، وغادر مصر هاربا وبنو إسرائيل فيها يسامون العذاب ألوانا؟ حيث وجد الأمن والطمأنينة في مدين إلى جوار شعيب صهره الذي آواه وزوجه إحدى ابنتيه؟

إنها جاذبية الوطن والأهل تتخذها القدرة ستارا لما تهيئه لموسى من أدوار.. وهكذا نحن في هذه الحياة نتحرك. تحركنا أشواق وهواتف، ومطامح ومطامع، وآلام وآمال.. وإن هي إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة، والستار الذي تراه العيون لليد التي لا تراها الأنظار ولا تدركها الأبصار. يد المدبر المهيمن العزيز القهار)[٣].

ويقول أيضا: (والهجرة في سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه: الأهل والديار والوطن والذكريات، والمال وسائر أعراض الحياة)[٤].

---

(١) في ظلال القرآن /٥/٢٧٤٩/، ط٤٠: دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
(٢) في ظلال القرآن /٦/٣٨٨٤/.
(٣) في ظلال القرآن /٤/٢٣٣٠/.
(٤) في ظلال القرآن /٤/٢٤٣٨/.

ويقول أيضا: (فربه يذكره هنا بنعمته عليه، إذ هداه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم. ولم يتركه مع هذا بلا ابتلاء ليربيه ويعده لما أراد فامتحنه بالخوف والهرب من القصاص؟ وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم، وهو الذي تربى في قصر أعظم ملوك الأرض، وأكثرهم نزفا ومتاعا وزينة)[١].

ويقول أيضا: (ترى أي خاطر راود موسى، فعاد به إلى مصر، بعد انقضاء الأجل، وقد خرج منها خائفا يترقب؟ وأنساه الخطر الذي ينتظره بها، وقد قتل فيها نفسا؟ وهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه؟

إنها اليد التي تنقل خطاه كلها، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطري إلى الأهل والعشيرة، وإلى الوطن والبيئة، وأنسته الخطر الذي خرج هاربا منه وحيدا طريدا. ليؤدي المهمة التي خلق لها ورعي منذ اللحظة الأولى)[٢].

* * *

ـ **ثالثا:** رفض فكرة الوطن لأنها في نظرهم مقابل الخلافة أو الأمة.

التعليق:

لما أن كان الانتماء مكونًا راسخًا من مكونات الفعل البشري، وهو من أهم مكونات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد أكده الشرع الشريف، وانطلق منه، وعول عليه، ولم يقمعْه أو يتجاهله، ولكن عدله ونسقه، وحدد للمكلف معالم راقية للانتماء، تلبي ذلك الدافع القهري المنبعث من داخله، وتحفظه من مزالقه، التي من الممكن أن يؤدي إليها.

---

(١) في ظلال القرآن /٤/٢٣٣٥/.

(٢) في ظلال القرآن /٥/٢٦٩١/.

ثم إن الشرع الشريف لم ير بأسًا بوجود انتماءات جزئيةٍ في إطار ذلك الانتماء الكلي، تدعمه وترسخه، وتنبع منه، وتفضي إليه، ولا تخرج عن نسقه الكلي، فسمح بمحبة البقعة المحددة التي ولد فيها الإنسان وعاش، وهي موطنه المباشر، ولا يتعارض ذلك مع محبة الأمة بأكملها، بل هو جزء منها، فإن غلب عليه حبه وانقلب تعصبًا، يعادي من أجله المسلم الناس فإن الشرع يرفضه، ومن هنا جاءت محبة الأوطان والديار، وأكد الشرع قضية حب الوطن، وكان ﷺ يحب مكة ويشتاق إليها، مع أن المدينة مقره ومثواه.

ومن هنا أيضًا جاءت محبةُ توجهٍ علميٍّ معين، أو تيارٍ فكريٍّ معين، أو منهجٍ بحثيٍّ معين، دون أن يَحُولَ ذلك بين المسلم وبين الدوائر الأوسع، والأُطُر الكبرى، بل كل تلك الانتماءات من نبع الانتماء الأكبر، وهي التي تكوِّنه وتبني أركانه، ولذلك نهى الشرع عن انتماء جزئيٍّ يتعصب له المرء حتى يحادَّ به المسلمين، ويقاطعَ به بقية الانتماءات الجزئية، التي تصب في معين الانتماء الأكبر، وكل ذلك من أجل أن يستمر التوازن بين دوائر الانتماء المختلفة، وبعضها أكبر من بعض، وبهذا تزدهر المواهب، وتتعدد الأفكار والرؤى، دون عصبية ولا عداء.

فالانتماء دوائر، بعضها أوسع من بعض، والأكبر منها لا ينفي الأصغر، والصغير منها لا يكر على الكبير بالبطلان، ولا يقطع الروابط ولا الصلات مع أبناء الانتماء الكبير.

وانتماء الإنسان لوطنه لا يلغي ولا ينفي انتماءه إلى أمته العربية،

وعالمه الإسلامي، لأنها دوائر متداخلة كما سبق.

والانتماء إما أن يزول، فيدفع صاحبه إلى التنكر والتبرؤ من أوطانه وقومه وأهله، مما لا يجمل به الانسلاخ منه، وإما أن يزيد بصاحبه، فيصل به إلى العصبية، التي تجعل انتماءه هذا يفسد عليه ما يربطه بأبناء الدوائر الأوسع من الانتماء، ففارق بين حسن الانتماء والوفاء، والقيام لكل دائرة من دوائر الانتماء بحقها، بما لا يقطع روابط البشر، وهو الذي نتحدث عنه، وبين التعصب الذي يجعل الإنسان شديد الحمية إلى دائرة بعينها من دوائر الانتماء، تجعله يعادي من سواها ويقاطعه ويتحامل عليه.

وإنما حرصت على تبيين هذا المعنى تصحيحا لخطأ شاع عند بعض المعاصرين، ممن ظنوا أن قيامهم بالدين يقتضي منهم البراءة من حب الأوطان، وقد تبين مما سبق من كلام أئمة الهدى أن حب الوطن دائرة من دوائر الانتماء، نطقت بها الفطرة، وسقاها الشرع الشريف ورعاها، وأقام موازين القسط بينها وبين بقية دوائر انتماء الإنسان، بحيث لا يجور بعضها على بعض، وبحيث تتراكم وتتسق بما يحقق كمال إنسانية الإنسان.

* * *

ـ رابعا: الأوطان حدود جغرافية صنعها الاستعمار فلا نحبها ولا نتعامل معها.

التعليق:

الأوطان ليست حدودا جغرافية صنعها الاستعمار، بل الأوطان بقاع

عريقة، قبل الاستعمار بألوف السنين، واستقرار الوضع الحالي على تلك الحدود يوجب علينا حفظها والدفاع عنها، ورفع تلك الحدود لا يكون بالتلاعب، بل بالاتفاقات العليا التي يتم إبرامها وفق آليات محترمة كما صنع الاتحاد الأوربي مثلا، وما لم يتم ذلك فلابد من احترام الوضع القائم والحفاظ عليه وعدم تضييعه ولا انتقاصه ولا التفريط فيه، فضلا عن أن قيمة الوطن ليست متعلقة أصلا بفكرة الحدود، بل الوطن قيمة تاريخية وعلمية وإقليمية وعالمية، والوطن المصري على وجه الخصوص أمر مركب من عبقرية المكان، وعبقرية الزمان، وعبقرية الإنسان.

فهذا خلط شديد في المفاهيم، يختزل صورة الوطن في الذهن، ويؤدي إلى صناعة صورة مزيفة، يتم فيها إهدار قيمة الوطن وتاريخه وإنجازاته ودوره، ويتم فيها التلاعب بمشاعر الإنسان، حيث يلتبس في ذهنه مفهوم الوطن، ويتم إلصاق فكرة الاستعمار وأثاره السيئة بفكرة الوطن، بحيث كلما خطرت فكرة الوطن في الذهن انتقل الذهن منها إلى بشاعة الاستعمار وكراهيته، فيتصور أن كراهية الاستعمار تقتضي منه البراءة من الوطن، تحت دعوى أن الوطن صنيعة الاستعمار!!!!

* * *

ـ خامسا: الأوطان هي المساكن التي ترضونها، والتي ذمها الله.

التعليق:

الآية المشار إليها من سورة التوبة نصها: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ

وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

وقد قامت تلك التيارات بصناعة فهم مغلوط، يتصورون فيه أن الأوطان هي تلك المساكن التي ترضونها، وإذا صارت أحب إلينا من الله ورسوله والجهاد في سبيله فهذا فسق.

وهذا المفهوم حافل بالأغلاط والأخطاء، ويشتمل على منهج سقيم في فهم القرآن، يؤدي إلى أن ننسب إلى القرآن عكس ما يريد، وهذه هي المنهجية الإجمالية المغلوطة في فكر تلك التيارات، وهي الدخول إلى فهم القرآن بدون أدوات الفهم الصحيح، وأدوات الفهم الصحيح هي العلوم التي يعلمها الأزهر لأبنائه على مدى سنين من عمر طالب العلم، وهي علوم البلاغة، وعلم النحو، وعلم أصول الفقه، وعلم التفسير، لأن القرآن عربي مبين، ولا يمكن فهمه إلا بتلك الأدوات العلمية، ومن أراد أن يفهمه بدونها فإنه يتسلط على القرآن بفهمه المسبق، وينسب أفكاره الخاصة للقرآن، مما يؤدي به إلى تقويل القرآن ما لم يقله، وهذا منهج في غاية الخطورة.

وننتقل إلى نموذج عملي في فهم هذه الآية:

الآية تتحدث عن شخص، جعل بعض الأمور الشخصية، والأهواء الضيقة، مقدمةً عنده في سلم الأولويات على القضايا الكبرى، فمن جعل

---

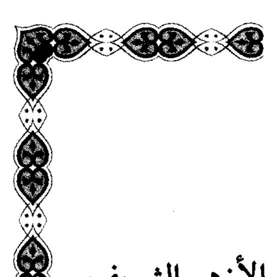
(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

تعلقه بأبيه أو ابنه أو ماله أو مسكنه عائقا وحائلا يعوقه عن المسارعة إلى القضايا الكبرى فهذا هو المخالف لشرع الله، وتتحقق تلك الصورة المذمومة عند شخص تعلق ببيته ومسكنه، بحيث صار بيته أو قصره أو حدائقه أو شركاته أو أمواله أحب إليه من الله ورسوله، بحيث إذا قلنا له إن وطنك في خطر، وإذا كان الوطن في خطر فقد أوجب الله عليك الجهاد في سبيله بالدفاع عن وطنك، فاترك الآن منازلك وأموالك وتعال للدفاع عن وطنك، فإنه يتخاذل، لأن مسكنه الشخصي أحب إليه من قضايا الدفاع عن الأوطان، التي سماها الله تعالى: (جهادا في سبيله).

فالله تعالى يقول لنا في الآية: الشرع الشريف يأمركم بترتيب سلم الأولويات، بحيث لا تتقدم الأمور الشخصية على الأمور المجتمعية العامة، وإياكم أن يغرق الواحد منكم في الأنانية والمنافع الشخصية وينسى الهموم الكبرى، التي تهدد عموم الأمة.

فأين هذا المفهوم القرآني الشريف من شخص يتلاعب بفهم القرآن، ويريد أن يقلب المفاهيم، ليتصور أن الله تعالى جعل حب المساكن (التي هي الأوطان في نظره) في كفة، وجعل حب الله والجهاد في سبيله في كفة، بينما الفهم الصحيح للآية يجعل حب الله وحب الوطن في كفة، والأنانية الشخصية والحرص البالغ على المنفعة الشخصية في كفة أخرى.

وأما بقية الأمور التي صنعت الصورة المشوهة للوطن عندهم فالرد عليها مذكور ضمنا خلال ما يأتي من صفحات.



ثانيا:
الصورة الصحيحة للوطن في الفكر الإسلامي وعقلية الأزهر الشريف

○ **حب الوطن في القرآن الكريم وكلام المفسرين:**

للإمام الفخر الرازي ملمح لطيف في الاستدلال من القرآن الكريم على حب الوطن، وأنه داع فطري شديد العمق في النفس؛ أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم﴾[١] فقال: (جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس)[٢].

كأن الله تعالى يقول: ولو أني كتبت عليهم أعظم مشقتين في الوجود لم يمتثلوا، وأعظم مشقتين هما قتل النفس، ويقابلها فراق الوطن، فمشقة قتل النفس في كفة، ويوازيها ويساويها تماما فراق الوطن.

ففراق الأوطان عند العقلاء أمر صعب جدا، يساوي ألم قتل النفس، مما يدل على أن التعلق بالوطن وحبه أمر عميق في النفس.

وقال العلامة الملا علي القاري في: (مرقاة المفاتيح): (ومفارقة الأوطان المألوفة هي أشد البلاء، ومن ثم فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٣]

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٦.
(٢) التفسير الكبير /١٥/١٦٥/.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩١.



بالإخراج من الوطن؛ لأنه عقب بقوله: ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾[1])[2].

ومن ثم فإن كل آية تظهر فضل الهجرة فإنها راجعة إلى هذا الأصل، والذي هو شدة الصبر ومغالبة النفس، على فراق الأوطان المحبوبة، إيثار لمعنى من المعاني الشريفة، فكم لهذا المعنى من قدر، حتى تصبر النفس على تلك المشقة العظيمة لأجله.

قال الشاعر:

ثلاث يعز الصبر عند حلولها ... ويعزب عنها عقل كل لبيب

خروج اضرار من بلاد تحبها ... وفرقة أصحاب، وفقد حبيب

* * *

○ **حب الوطن في الحديث النبوي الشريف وكلام شراح الحديث:**

روى البخاري وابن حبان والترمذي من حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قدم من سفرٍ فنظر إلى جُدُرات المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها).

ففي هذا الحديث الجليل تصرفٌ نبويٌّ هادٍ، محفوف بالعصمة، ومنزل بالوحي، تحرك به الجنان النبويُّ الشريف، ومن ورائه الإلهام الصادق، والوحي المبين، بحنين القلب إلى الوطن، ونزوع الفؤاد إليه،

(١) سورة البقرة، الآية ١٩١.

(٢) مرقاة المفاتيح /٧/٥٨٢/.

حتى إن كان ﷺ ليحرك دابته إلى المدينة المنورة إذا قفل من سفره، وأبصر جدرانها، من حبها وحنين الجنان الشريف إليها.

ولذلك قال الحافظ ابن حجر في: (فتح الباري، في شرح صحيح البخاري): (**وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن، والحنين إليه**)[١]، ونحوه عند البدر العيني في عمدة القاري[٢].

فهذا الحديث الجليل مرشدٌ إلى حظ من السنن النبوية المشرفة، يتجاور مع بقية السنن الشريفة المتعلقة بالعبادات، والمتعلقة بالآداب والأخلاق، والمتعلقة بالحرف والصنائع ووجوه العمران، والمتعلقة بالعلاقات الواسعة بين الأمم، إلى آخر تلك المنظومة القيمية النبوية، الصانعة لشخصية الإنسان المسلم على حد التمام والكمال.

قال الحافظ الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (وكان يحب عائشة ويحب أباها ويحب أسامة ويحب سبطيه ويحب الحلواء والعسل ويحب جبل أحد ويحب وطنه ويحب الأنصار إلى أشياء لا تحصى مما لا يغني المؤمن عنها قط)[٣].

بل جعل العلماء حب الوطن هو علة مشقة السفر مطلقا، حتى لقد ذهب إلى ذلك بعض شراح الحديث في تفسير الحديث الذي رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر الجهني أنه ﷺ قال: (ثلاثة تستجاب

---

(١) فتح الباري /٣/٦٢١/.

(٢) عمدة القاري /١٠/١٣٥/.

(٣) سير أعلام النبلاء /١٥/٣٩٤/.

دعوتهم: الوالد لولده، والمسافر، والمظلوم على ظالمه)، فعلل الشراح سبب استجابة دعاء المسافر هو ما يعانيه من فاقة واضطرار وحزن لمفارقة وطنه وأهله، فقال العلامة المناوي في: (فيض القدير) شارحا للحديث: (لأن السفر مظنة حصول انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة)[1].

وقال بعض الحكماء: الحنين إلى الوطن من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد.

ولقد فطر الله تعالى الخلائق جميعا على الميل الفطري الحنيف اللطيف إلى أوطانها، وأودع سبحانه في الفِطَر النقية من سائر الموجودات قرارا وسكونا وانشراحا إلى الوطن، حتى إن المتأمل ليجد ذلك في سائر أجناس الوجود، فالآساد والأشبال تأوي إلى عرينها، والإبل تحن إلى أعطانها، والنمل يحن إلى قراه، والطيور تهوي وتميل إلى وكناتها، والإنسان مجبول على مفطور على شدة الحنين إلى الوطن، وقد قال ابن الجوزي رحمه الله في: (مثير الغرام الساكن): (والأوطان أبدا محبوبة)[2].

وقد لاحظت العرب ذلك، وتفننت في تسمية أوطان الكائنات، حتى قال الحافظ ابن حجر في: (فتح الباري): (والعرب تفرق في الأوطان،

---

(١) فيض القدير /٣/٣١٧/.

(٢) مثير الغرام الساكن، إلى أشرف الأماكن /ص٧٥/، ط: دار الحديث، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

فيقولون لمسكن الإنسان: وطن، ولمسكن الإبل: عطن، وللأسد: عرينٌ وغابةٌ، وللظبي: كِنَاسٌ، وللضب: وِجَارٌ، وللطائر: عُشٌّ، وللزنبور: كُورٌ، ولليربوع: نافق، وللنمل: قرية)[1].

قلت: ولتلك الأجناس جميعا حنين إلى أوطانها، حتى جمع ربيعة البصري على سبيل المثال كتابا في: (حنين الإبل إلى الأوطان)، فكيف بالإنسان ؟!.

فإذا كانت أجناس الوجود كلها من حولنا رغم أنها عجماء لا تفصح ولا تبين، قد تبين من ملاحظة طباعها وأحوالها شدة وفائها وحنينها إلى أوطانها، فالإنسان أولى بذلك منها، لما يمتاز به عنها من الكمالات الإنسانية، التي تجمله محلا لكل خلق كريم، والوفاء والمروءة على رأس تلك الشمائل، حتى قال أحمد شوقي رحمه الله:

وللأوطان في دم كلِّ حُرٍّ ... يدٌ سَلَفَتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقُّ

وأقول على غرار ذلك: الإنسان لكمال إنسانيته أولى بالوفاء للوطن، والقيام بمحبته وصيانته من سائر تلك الأجناس.

* * *

○ حب الوطن عند الفقهاء:

بل لقد ذهب الفقهاء إلى تعليل حكمة الحج وعظمة ثوابه إلى أنه يهذب النفس بفراق الوطن، والخروج على المألوف، قال الإمام القرافي

---

(١) فتح الباري /٦/٣٥٨/، وسبقه إليه ابن الجوزي في: كشف المشكل /٣/٣٦٣/.

في: (الذخيرة): (ومصالح الحج: تأديب النفس بمفارقة الأوطان)[1].

* * *

○ حب الوطن عند الأولياء والصالحين:

لم يزل دأب الصالحين محبة الأوطان، حتى لقد روى أو نعيم في: (حلية الأولياء) بسنده إلى سيد الزهاد والعباد إبراهيم بن أدهم أنه قال: (ما قاسيت فيما تركت شيئا أشد علي من مفارقة الأوطان)[2].

* * *

○ حب الوطن عند الحكماء:

وقد قال الأصمعي: (قالت الهند: ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان: الإبل تحن إلى أعطانها وإن كان عهدها بها بعيدا، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أنفع منه)[3].

وقد روى الدينوري في: (المجالسة) من طريق الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول: (إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه)

* * *

---

(١) الذخيرة /٣/١٩٤/.
(٢) حلية الأولياء /٧/٣٨٠/.
(٣) المقاصد الحسنة /ص٢٩٧/.

○ **حب الوطن عند الشعراء والأدباء:**

ولم يزل الشعراء يبكون ويستبكون، وتجيش منهم الخواطر، وتتحدر منهم روائع البيان في الإعراب عن شدة الحنين والشوق إلى الأوطان، حتى إن الباحث المتتبع ليظفر من منثور أشعارهم بما يوفي ديوانا جليلا، وسفرا كبيرا نبيلا، في الأشعار الفائقة، والأبيات الرائقة، المعبرة عن شدة فراق الأوطان، على وجدان الإنسان.

بل ربما ترنم بعضهم بشدة الحنين إلى بقاع، هواؤها غير طيب، وماؤها غير عذب، ولا تطيب فيها أسباب الإقامة، ولكنها من وراء ذلك وطن، وحب الوطن يغلب ذلك جميعا، فقال الشاعر:

بـلادٌ ألفناهـا ولـم تـكُ مألْفـا وقد يُؤْلَفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنْ

وقد تؤلَفُ الأرض التي لم يطِبْ بها هـواءٌ ولا مـاءٌ، ولكنهـا وطـنْ

ولأجل هذا الباعث الفطري الكامن في أعماق الإنسان، فقد عظم الله تعالى شأن الهجرة والمهاجرين، لما اشتملت عليه من مشقة على النفس، ومكابدة لها، بالصبر على فراق الأوطان، ومرابع الصبا، ومعاهد النشأة، فلأجل هذا رتب الله تعالى على الهجرة من الفضل والثواب ما هو مذكور في القرآن الكريم في غير موضع.

وقال ابن بسام في: (الذخيرة): (غير أن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحن إلى وطنه، حنين النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله، ولا ينسى بلدا فيه مراضعه، قال الأول:

أحـب بـلاد الله مـا بـين مـنعج إلـيَّ وسـلمى أن يصُـوبَ سـحابها

بـلاد بهـا عـقَّ الشـباب تمـائمي وأول أرض مس جلـدي ترابهـا)[1]

قال صاحب (ديوان المعاني): (وذكر ابن الرومي العلة التي يحب الوطن لأجلها وليس له في ذلك إمام إلا أحمد بن إسحاق الموصلي فإنه قال:

أحـب الأرض تسـكنها سـليمى وإن كانـت بواديهـا الجـدوب

ومـا دهـري بحـب تـراب أرض ولكـن مـن يحـل بهـا حبيـب

وقال ابن الرومي:

ولـي وطـن آليـت أن لا أبيعـه وألا أرى غيـري لـه الـدهر مالكـا

عهـدت بـه شـرخ الشـباب ونعمـة كنعمـة قـوم أصـبحوا فـي ظلالكـا

فقـد ألفتـه الـنفس حتـى كأنـه لهـا جسـد لـولاه غـودرت هالكـا

وحبـب أوطـان الرجـال إلـيهم مـآرب قضـاها الشـباب هنالكـا

إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرتهم عهـود الصـبا فيهـا فحنـوا ذلكـا

وقـد ضـامني فيـه اللئـيم وغرنـي وهـا أنـا منـه معصـم بحبالكـا

فـإن أخطـأتني مـن يمينـك نعمـة فلا تخطئنـه نقمـة مـن شـمالكا)[2]

* * *

○ كتب ومؤلفات كاملة أُلِّفت في حب الوطن:

ولم يزل هذا المعنى يستفيض عند الأقدمين، وتتسع مادة الكلام فيه،

(١) الذخيرة، إلى محاسن أهل الجزيرة /١/٣٤٣/، ط: دار الثقافة، بيروت، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: الدكتور إحسان عباس.

(٢) ديوان المعاني /٢/١٨٩/.

حتى أفرد بالتآليف:

١ ـ فألف الجاحظ كتابه: (حب الوطن)، وقد طبع[١].

٢ ـ ومنهم: صالح بن جعفر بن عبد الوهاب الهاشمي الصالحي الحلبي القاضي، قال ابن عساكر في: (تاريخ دمشق): (وصنف كتابا في الحنين إلى الأوطان)[٢].

٣ ـ ومنهم الإمام الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، قال في: (الأنساب): (وقد ذكرت قصته وسبب بنائه في كتاب النزوع إلى الأوطان)[٣].

٤ ـ ولأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني كتاب: (الشوق إلى الأوطان).

٥ ـ ولأبي حيان علي بن محمد التوحيدي كتاب: (الحنين إلى الأوطان).

٦ ـ ولأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي كتاب: (المناهل والأعطان، والحنين إلى الأوطان)،

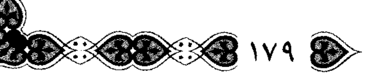
٧ ـ مقومات حب الوطن في ضوء تعاليم الإسلام، للدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخليل.

---

(١) طبعت رسالة (الحنين إلى الأوطان) للجاحظ، في دار الرائد العربي، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) تاريخ دمشق /٢٣/٣٢٥/

(٣) الأنساب /٣/٢٤٤/.



٨ ـ حب الوطن من منظور شرعي ، للدكتور زيد بن عبد الكريم الزيد.

٩ ـ الوطن والاستيطان ، دراسة فقهية ، للدكتور محمد بن موسى بن مصطفى الدالي.

وغيرهم كثير ممن ألفوا في هذا الباب.

** ** **

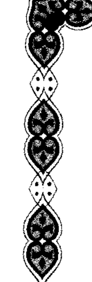


(٨)

المشروع الإسلامي

بين الحقيقة والخرافة





المشروع الإسلامي بين الحقيقة والخرافة

ـ كثر الكلام عن المشروع الإسلامي، وأثير حوله خلال الفترة الماضية جدل ولغط وصياح وتدافع، وروَّج له بعض الناس، ورفضه بعض الناس، وبدأت التهم تُرْمَى هنا وهناك، فهذا عدوٌّ لله ولرسوله لأنه معارض للمشروع الإسلامي، وذاك مناصر للمشروع الإسلامي، دون أن يتوقف أحد ليشرح للناس ماهية المشروع الإسلامي، حتى يعلم الناس على بصيرة أين موقعهم منه، فأحببت أن أرجع خطوة إلى الوراء، لأسأل، ما هو المشروع الإسلامي أولا، قبل البحث عن أحكامه، ومتعلقاته؛ إذ لا بد من وضوح المعنى قبل الحكم عليه بأي حكم، والطرح الذي أقدمه هنا هو عصارة من عقل الأزهر الشريف العريق، في فهم هذا الدين، ومعرفة علومه وتطبيقاته، ووضع اليد على مواضع الإشكال وأسباب العلل، التي تحتاج دون غيرها إلى عمل، وعند غياب هذه البصيرة الأزهرية فإن الضباب يكتنف المفاهيم، ويحدث حولها جدل ولجاج في غاية العقم، ولا يفضي إلا إلى مزيد من الالتباس، وتعالوا لنبدأ القضية من معالمها الكبرى:

ـ المشروع الإسلامي هو: تقديم أجوبة عينية جزئية تفصيلية محددة، على أسئلة العصر ومشكلاته، في النواحي الديبلوماسية، والإدارية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفلسفية، والمعرفية.

ـ وأن يكون ذلك منطلقا من النموذج المعرفي المسلم، المكون من: نصوص الشرع، ومقاصده، وإجماعاته، وأحكامه، وتشريعاته، وأخلاقه، وقيمه، وقواعده الأصولية والفقهية، وسننه الإلّهية، وآدابه وفنونه.

ـ وذلك عن طريق توليد العلوم والمناهج والتنظيرات، التي يمكن تحويلها إلى برامج عمل، ومناهج تطبيق، تؤول إلى مؤسسات، ونظم إدارة.

ـ وغاية هذا المشروع الإسلامي هو إنتاج تطبيقات معرفية وخدمية صانعة للمؤسسات والحضارة، تسري فيها روح مقاصد الشريعة، من حفظ النفس والعقل والعرض والدين والمال، ومحبة العمران والسعي في صناعته، واحترام الإنسان، وتعظيم الأصل والأساس الأخلاقي، والانفتاح على العالم، وإفادته والاستفادة منه، وبروز قيمة الطفولة، وقيمة المرأة، وحفظ البيئة، وحقوق الأكوان (إنسانا، وحيوانا، ونباتا، وجمادا)، وسريان معنى الربانية في ذلك كله، بحيث يفضي بالإنسان إلى ربه سبحانه، وهو نمط من الحضارة وتطبيقاتها، تتسع للمسلم والمسيحي واليهودي، والبوذي، والاشتراكي، والعلماني، والليبرالي، واليساري، والملحد، وسائر الملل والنحل، لا يشعر فيه أحد في شئون المعاملة أنه مكره ولا مكروه ولا مضطهد، ومن لم يدخل فيه فإنه يستظل برحمته وعدله وشفقته وإنصافه، لأن هذا المشروع منتج للقيم، وناقل لها، وهو يصدرها إلى الجميع.

ـ أساس هذا المشروع الإسلامي وأصله ومحوره وجوهره ومقصده

وبَوْصَلَتُهُ ومؤشره هو منظومة الأخلاق، والمكارم الإنسانية، والقيم الرفيعة، واحترام الإنسانية، والسعي في إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وشعاره (إنما بعثت متمما لمكارم الأخلاق)، فكل تطبيق أو منتج يشوِّشُ على هذا المقصد، أو يفسده، أو ينحرف عنه، أو يفارقه فهو باطل.

ـ وهذا كله من قبيل تخريج الفروع على الأصول، وهذه وظيفة المجتهد أو المجامع الفقهية، والاجتهاد يتجزأ، وأعني بذلك تخريج الفروع والعلوم الإنسانية، والإدارية، والاقتصادية على أصول الإسلام وينابيعه ونموذجه المعرفي، وفق مناهج الاستنباط المعتمدة في أصول الفقه وعلوم المعقول.

ـ وكيفية ذلك مثلا بمنظومة من الإجراءات، تشتمل على مراكز أبحاث، وحلقات نقاش، وورش عمل، تضم الفقهاء المحققين في الفقه والأصول ومقاصد الشريعة وواقع العصر، مع جهابذة العمل الديبلوماسي وخبرائه مثلا، بحيث تفضي تلك الإجراءات إلى رؤية، وخطة، ومعايير للتقييم، يتم بها استخراج كافة الإشكاليات والتصرفات والتطبيقات والأسئلة الجزئية التي تعترض الديبلوماسيين في عملهم، مع فهم آفاقها ومشكلاتها ومآلاتها، وأثرها على علاقة الوطن بالقوى الدولية والأعراف الديبلوماسية المحيطة بنا في العالم من حولنا، ثم يتم التداول في كل ذلك، وتخريجه على أصول أهل الإسلام، بحيث يتم إيجاد رؤية وتحليل ومقترحات تسري من خلالها مقاصد الدين وقيمه إلى هذا المجال، عن وعي واستنباط واستخراج دقيق لما يقدمه الشرع الشريف من أجوبة.

ـ ولا تتم الإجراءات المذكورة من حلقات النقاش، وورش العمل وغيرها إلا في جوٍّ من الثقة المتبادلة، والصداقة الحميمة، والتقدير المتبادل، والحرص على تبادل العلوم والمعارف من كل الأطراف فيما بينهم، مهما تباينت الرؤى والمفاهيم، بل إن الذي يدفع الجميع إلى ذلك هو الحرص الكبير على بناء الوطن، ومشاركة كافة الطوائف في ذلك.

ـ ثم يتم مثل ذلك في النظم السياسية، ومفهوم الدولة، وشبكة علاقاتها بالأفراد وبمؤسسات المجتمع، ومعرفة وظائف الدولة المنوطة بها، والتقاطعات بينها وبين الحريات المختلفة، مع استيعاب للنظم السياسية المعاصرة، وخلفياتها الفلسفية عند توماس هوبز، وجون لوك، وهيجل، وغيرهم، ثم الرجوع بكل ذلك إلى معادن الشريعة وينابيعها، مع دراسةٍ وتطويرٍ وتمديدٍ وتوليدٍ لكتابات إمام الحرمين، والماوردي، وابن خلدون، وأمثالهم، حتى تتخرج هذه الفروع على أصول الشرع الشريف وتحقق مقاصده، فيتم بذلك صناعة مشروع تفصيلي جزئي عيني، يشتمل على أجوبة جزئية، بالقدر الذي يكفي لبناء العمل والتطبيقات عليها، على إشكالات العصر المتعلقة بذلك المجال، ثم إن النقد العملي والتطبيق الواقعي لهذه النظريات سوف يسهم في توسيع آفاقها، وحَبْكِها، وتدارك الجزئيات التي لم يقع الالتفات إليها، ثم يبدأ طور آخر من الدراسة في كيفية اتساق هذه المواد والقوانين والإجراءات مع النظم السياسية القائمة في العالم من حولنا، فيشبه هذا العمل قول الإمام الشافعي رحمه الله: (أقمت عشرين سنة أطلب أيام الناس، أستعين بذلك على الفقه).

ـ ويتم مثل ذلك في كافة النواحي الفلسفية، والمعرفية، والعلمية

التجريبية، والاقتصادية، والإدارية، والخدمية، بحيث عندما يتكامل ذلك، فإن الناتج النهائي هو الذي يمكن أن يسمى مشروعا إسلاميا.

ـ ومن أمثلة ذلك أن صديقنا المستشار مصطفى سعفان قد أعد دراسة عن الموانع والأسباب التي تحول دون تنزيل وتطبيق عدد من الأحكام الشرعية في الواقع، فأحصى سبعمائة إشكالية، تحتاج منا إلى حل وأجوبة، وهي عصارة عمره في العلوم القانونية، وفي مجال القضاء، ولم نقم إلى الآن بدراستها وتحليلها، واستخراج أجوبتها وحلولها، من بيت تضاعيف التراث الفقهي والقانوني والقضائي لهذه الأمة.

ـ ولا بأس بأن تتعدد المشاريع الإسلامية، إما لأن بعض الأصول النظرية التي بنيت عليها ظنية، أو أن مناهج الاستنباط ظنية، أو لأن كثيرا منها من قبيل الفروع والأمور العملية التطبيقية التي يمكن أن تتعدد في ذاتها، فينتج من ذلك ثراء وبدائل وخيارات واسعة، وعدد من الأطروحات والحلول للقضية الواحدة، يرى الناس من خلالها اتساع الشرع الشريف لاحتياجات المكلفين، وما أودعه الله تعالى فيه من سعة.

ـ ثم إن هذا المشروع الإسلامي هو اجتهاد المسلمين في تنزيل الشرع الشريف على واقع زماننا هذا، ويقوم المسلمون فيه بواجب زمانهم؛ فإن من وظيفة الشرع الشريف أن يقدم الحلول للحوادث الممكنة شرعا، مع محاولة إيجاد البديل لما لا يمكن شرعا، أو مع تقويم الجهة التي انحرفت في الواقع عن الشرع الشريف، ولابد في ذلك كله من الرصد والتتبع والملاحقة لما يطرأ من تطور وتغير في المفاهيم والفلسفات، حتى لا يتجمد

المشروع عند جزئية بعينها، بل يظل قابلا لتوليد أجوبة جديدة بمقدار كل تغير طارئ على المحالِّ والمجالات التي يتم بها تسيير حركة الحياة، ومن أهم سماته وخصائصه أنه يفرق بين الثوابت والمتغيرات، مع معرفة جهات التغير التي تتغير بسببها الأحكام، من الزمان، والمكان، والأحوال، والأشخاص، وغياب الفارق بين الثابت والمتغير، أو الخلط بينهما، أو تنزيل أحدهما منزلة الآخر، يؤدي إلى تجميد الشرع الشريف عند زمن بعينه.

- لا يمكن صناعة ذلك كله إلا على أرضية بحثية ومعرفية دقيقة من العلوم الإنسانية، حتى تنهض تلك الأطروحات على أساس منير ومستبصر بالخصائص النفسية والتفاعلات الاجتماعية للإنسان المصري والعربي وغيره، وهذه الأرضية المعرفية لم نقم بصناعتها إلى الآن.

- الأسلمة القائمة على جلب منتج ديبلوماسي أو إداري صنعته حضارة أخرى، وقد استلهمت فيه أصولا فلسفية مختلفة عنا، ثم نتكلف نحن تركيبه على خصائص نفسية واجتماعية مغايرة، ثم نتكلف تركيبه على الخصائص النفسية والاجتماعية للإنسان المصري، ثم نقوم بتجميله ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والصياغات العربية، ثم ندعي أنه قد تمت أسلمته، وننادي بجعله مشروعا إسلاميا، فيكون له شكل خارجي إسلامي، بينما تعمل كل مكوناته وجزئياته وأصوله المعرفية، ومنطلقاته النفسية وفق طرح فلسفي مغاير لهويتنا وحضارتنا، فإن كل ذلك يمثل جناية كبرى على الإسلام وعلومه، ويؤدي إلى الفشل، أو إلى مزيد من الانفصام

وعدم الاتساق بين المفهوم القيمي الكامن في النفس، وبين التطبيق المعيشي، يؤدي بصاحبه إلى صراع نفسي، أو انفصام في الشخصية، أو حَوَلٍ معرفي ونفسي، وهنا لابد من الإشارة إلى الفارق الدقيق بين مسيرة الأديان ومسيرة المذاهب الوضعية؛ فإن الأديان قبل أن تستقر في الدساتير والقوانين، فإنها تكتب في القلوب والضمائر، وينشأ بها سلوك إنساني أخلاقي.

ـ لا يمكن لنا أن نصنع أي شيء من ذلك إلا بتنشيط البحث العلمي، وتشغيل الطاقات العلمية والبحثية الهائلة المبعثرة، والعقول العبقرية الخاملة، التي أصابها اليأس والإحباط والاختناق، من طول الإهمال، وشدة الفقر والتعقيد في الوسط العلمي، مما آل إلى وجود جو خانق للإبداع والأمل، طارد للخبرات العلمية، لأن العمل الموصوف هنا مشروع قومي، تنخرط فيه أجيال من الباحثين، بعد أن يتم توفير كل الأدوات والإمكانيات العلمية والبحثية لهم، ولابد لكل هذا من تمويل ضخم جداً، لا يمكن وجوده في ظل اقتصاد منهار، فصار واجب الوقت أولا وقبل كل شيء هو توجيه كافة الفصائل والتيارات والقوى إلى إنعاش الاقتصاد، وتنشيط الوقفيات العلمية للإنفاق على البحث العلمي، ومن هنا يبرز دور مؤسسات المجتمع المدني في هذا الحراك الحضاري.

ـ والدعوة والإعلان والترويج لما يسمى بالمشروع الإسلامي ـ قبل تصنيعه واستنباطه من ينابيعه ـ أمر في غاية الخطورة، لأنه يدعو الناس إلى شيء، ثم عند إقبال الناس وقبولهم يفاجئون بأنه لا إجابة لمشكلات

عصرهم، أو بإجابات مرتجلة هزيلة، أو بجهل مطبق بالواقع، مما يفضي بالناس إلى التكذيب والتشكك في وجود أي طرح إسلامي صالح لتسيير حركة المجتمع، وحياة البشر، ويجعل الناس غير قابلين لتصديق أي طرح إسلامي آخر بعد ذلك.

ـ مثال ذلك أن تخرج فئة من الناس بحملات دعاية إعلانية ترويجية ضخمة، تتكلف مئات الملايين، تدعو إلى شراء سيارة مصرية الصنع، حتى إذا اقتنع الناس وصدقوا وتوافدوا على الشراء، فوجئوا بمن يقول لهم: (سوف نبيع لكم، لكن بعد أن نقيم المناجم ونجمع العمالة اللازمة لاستخراج المعادن والخامات اللازمة والمتوفرة بالفعل لكن في باطن الأرض، ثم إننا سوف ننشئ المصانع، ونجتذب الخبرات العالمية التي تساعدنا في التصنيع، وبعد نحو ثلاثين سنة مثلا سوف نرسل لكم السيارة المطلوبة)، فلماذا كانت الدعاية الضخمة لنقبل على الشراء فورا؟؟ إن الدعاية لشيء قبل تصنيعه يمثل خطرا كبيرا جداً.

ـ كل هذا في ظل وجود تجارب في أفغانستان والصومال والسودان وإيران وغيرها، آلت في معظمها إلى الخراب والدمار والتفكك والتراجع لدولها ومجتمعاتها وأوطانها، وجعلت كثيرا من المفكرين والباحثين ينفرون من أي أطروحة تتكلم عن مشروع إسلامي، لأن كل التجارب السابقة كانت نتائجها مريرة، والسبب هو عدم قيامنا حتى الآن بصناعة المنتج الفلسفي والفكري والتنظيري والتطبيقي للأصول التي يمكن أن تنهض على أساسها دولة، مع اعتمادنا على شدة حضور أصولها في نصوص هذا الدين

وأطروحاته، فحصل عندنا انتقال ذهني من حضور أصولها في ينابيع الدين ومعادنه العليا، إلى مظنة أن مجرد وجود أصولها يكفي في ترويجنا لها، وغفلنا عما يستوجبه ذلك من قيامنا كأمة، بالتصنيع والتنزيل والتخريج والتشييد لكافة إشكاليات العصر وفق تلك الأصول.

ـ يضاف إلى ما سبق ـ من العجز الذي وقعت فيه الأمة منذ زمن عن تنزيل معالم الدين بما يكفل استخراج أجوبة عن كافة إشكاليات العصر ـ أمر آخر شديد الأهمية، ألا وهو الغياب التام لأخلاق هذا الدين وقيمه، وبروز شراسة النفوس المريضة، التي تلوح لبقية المجتمع بالتنكيل والويل والثبور، في الوقت الذي تدعي فيه تقديم المشروع الإسلامي، مع العجز عن صناعة جزئياته، مما صنع عند المجتمع صورة شديدة السلبية، آلت عند بعض الناس إلى تكذيب الله ورسوله، ودفعت البعض إلى الإلحاد.

ـ هذا الشرع الشريف يشبه منجما حافلا بالمعادن النفيسة، والجواهر النادرة، لكن سريان هذه الجواهر إلى واقع الناس يحتاج إلى صناعة ثقيلة، وإلى علوم ومهارات متعددة، فيحتاج إلى الحفر والتنقيب، وإلى عمال المناجم، وإلى النقل، وإلى التعدين، والصهر، والطرق، والسحب، انتهاء بتصنيع الأدوات الدقيقة، والآلات الصغيرة، التي هي الأجوبة النهائية على مشكلات العصر، فنحن في حاجةٍ إلى إعادة تشغيل التروس والماكينات والمصانع، التي تأخذ هذه المواد الخام ـ المتمثلة في نصوص الوحيين ـ وتقوم بتصنيعها، لإخراج المنتج الذي يلبي احتياجات العصر.

ومشكلتنا هي أن التروس والآلات التي تصنع المنتج قد امتلأت

بالصدأ، ولم تعمل منذ زمن، والذي يشير إلى ذلك كله هو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، فالاستنباط صناعة ثقيلة، قائمة على التوليد والتصنيع والتخريج والإلحاق، حتى تتولد وتتأسس وتنشأ الإجابة عن أسئلة العصر ومشكلاته، بما يحقق مقاصد الشرع الشريف، ويحقق رخاء الإنسان وإسعاده في الدارين، ويسترسل به نور العلم على المجالات المختلفة، والعلم الذي خوطب به العباد رحمة وراحة، فأزمتنا وورطتنا ناشئة من عدم قيامنا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2].

ـ المؤسسات العلمية الأكاديمية الكبرى كالأزهر الشريف ـ من حيث هو علوم ومناهج وتاريخ وتجربة علمية عريقة ـ هي القادرة على القيام بصناعة هذا المشروع الإسلامي، شريطة توفير التمويل اللازم، والجو العلمي، وتفريغ القدرات العلمية الفذة.

ـ التجارب السابقة اجتهدت في القيام بواجب زمانها، ونحن نحتاج اليوم إلى الوقوف على مناهجهم دون مسائلهم فقط، لأن كثيرا من تلك المسائل مرتبط بظروف عصرهم، فلا تقدم أجوبة لإشكالات عصرنا هذا، لكنها مشتملة على مناهج صالحة للتعامل مع الوحي المجرد المتعالي على الزمان، ثم لابد أيضا من الاستفادة من تجارب العلماء الأجلاء: العلامة

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٨٣.

قدري باشا، والفقيه الدستوري والقانوني السنهوري، والعلامة مخلوف المنياوي، وشيخ الإسلام حسن العطار، والدكتور حامد ربيع، والعلامة الشيخ محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد عثمان نجاتي، والشيخ طنطاوي جوهري، والعلامة الشيخ علي جمعة، وعشرات من الشخصيات المشابهة، التي سلكت هذا المسلك، ووقفت على هذا البرزخ الفاصل، والتي اجتهدت قدر وسعها في القيام بواجب زمانها.

ـ هذا العمل الضخم الواسع المترامي الأطراف يشبه مراحل الصعود في تاريخ الأمم كلها، حيث تكون فترة طويلة ممتدة، ومرهقة وشاقة، تعكف فيها كل أمة أو دولة أو حضارة على استرجاع هويتها وأصولها، وتعكف على الاختيار والانتقاء مما هو محيط بنا من التراث العالمي، وذلك من خلال عيونها المتمثلة في الخبراء والعلماء والكفاءات الكبيرة النادرة، في كافة المعارف والعلوم، مع براعة في تركيب نتاجهم، بحيث يتأيد بعضه ببعض، ويفضي إلى صناعة رؤية واختيار لهذه الأمة، صالح للتفاعل مع نظم العالم من حولنا.

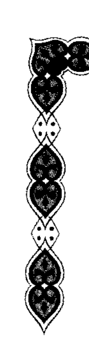
** ** **



القواعد

التي غابت عن عقلية التيارات المتطرفة فوقعت في كل تلك الأخطاء التاريخية





القواعد

١ ـ عند دراسة قضية من القضايا، والانطلاق إلى الوحيين الشريفين لاستجلاء الهدي منهما، فلابد إجراءات علمية:

○ **أولها:** جمع كل الآيات والأحاديث المتعلقة بالقضية، حتى يتاح لنا النظر في القضية بصورتها الكلية الكاملة، من خلال مجموع مفرداتها ومتعلقاتها، وإلا فأن انتزاع أحد النصوص دون ما يتعلق به ويتممه ويكمله يجعل الآية التي انتزعت كأنها سمكة أخرجت من الماء، ولا يقتصر استخراج الأحكام والمفاهيم على الآيات الكريمة المتعلقة بالفقه فقط، بل كل آية من آيات القرآن يمكن أن نستخرج منها حكماً ومفهوماً، سواء منها ما ورد في الفقه، أو القصص وأخبار الأمم الماضية، أو غير ذلك.

قال الطُوفي: (فإنَّ أحكامَ الشرع كما تُستنبط من الأوامر والنواهي، كذلك تُستنبط من الأقاصيص والمواعظ ونحوها، فَقَلَّ آية في القرآن الكريم إلاّ ويُستنبَطُ منها شيءٌ من الأحكام)[١].

وقال ابن دقيق العيد إن استنباط الأحكام من القرآن لا ينحصر في آيات معينة، قال: (هو غير منحصرٍ في هذا العدد، بل هو مختلف باختلاف القرائح والأذهان، وما يفتحه الله على عباده من وجوه الاستنباط، ولعلهم

(١) شرح مختصر الروضة /٣/٥٧٧/.



قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالةً أوَّليةً بالذات، لا بطريق التضمُّن والالتزام)[١].

○ **وثانيها:** حسن تركيب النصوص، وضم بعضها إلى بعض، حتى يتقدم منها ما حقه التقديم، ويتأخر ما حقه التأخير، ليتيسر التوصل إلى العام والخاص، والمطلق والمقيد.

○ **وثالثها:** حسن النظر في جهات الدلالة، ومعرفة مدلولات الألفاظ، ولابد حينئذ من بصر واسع بلسان العرب، وعلوم العربية، قال الشوكاني في كتاب: (العرف الندي): (فمن أراد الآن أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على مقتضى لغة العرب فلا يتم له معرفة أصل معنى اللفظ إلا بمعرفة علم اللغة، ولا يتم له معرفة أصل بنية الألفاظ العربية إلا بمعرفة علم الصرف، ولا يمكنه معرفة الحركات الإعرابية إلا بعلم النحو، ولا يمكنه معرفة دقائق العربية وأسرارها إلا بعلم المعاني والبيان، ولا معرفة قواعد اللغة العربية إلا بعلم الأصول، ولهذا كانت هذه العلوم هي المقدمة في العلوم الاجتهادية، وإن خالف في اعتبار البعض منها في الاجتهاد بعض أهل العلم، فالحق اعتبار الجميع، لأن فهم لغة العرب على الوجه المطابق لما كانت عليه اللغة لا يتم إلا بذلك، ولا ريب أن دقائق اللغة يستفاد من العلم بها العلم بدقائق الكتاب والسنة، والدقائق تستخرج منها الأحكام الشرعية كما تستخرج من الظواهر)[٢].

---

(١) نقله الزركشي في البحر المحيط /١٩٩/٦/.

(٢) الفتح الرباني، من فتاوى الشوكاني /٥٦٤٨/١١/، ط: مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢ ـ عند النظر والاستنباط فإياك أن تدخل إلى القرآن بتصورات مسبقة، تملأ ذهنك، أو نظريات خاصة بك؛ وتنطلق لتستنطق القرآن بما تريد، وتقوله ما تحب، بل أحكم النظر، ودعه ليقودك إلى ما تفيده دلالاته وألفاظه، ويلوح منه من هداية، ثم ارجع لتعديل مفاهيمك وتصوراتك عليه، فاجعله قائدا، وترقب منه مع كامل التهيب والأدب ما يلوح منه الدلالة والإفادة، وما تسمح به وتحتمله دلالاته.

٣ ـ احذر من أن تستنبط من القرآن معنى يكر على مقاصده وعموم مراداته بالبطلان؛ فإنه يجوز أن نستنبط من النص الشريف معنى يخصصه أو يعممه، لكن لا يستنبط منه معنى يعود عليه بالبطلان، قال الإمام ابن حجر الهيتمي في: (الفتاوى الفقهية الكبرى): (ومن قواعد الشافعي رضي الله عنه أنه يستنبط من النص معنى يخصصه أو يعممه ولا يستنبط منه نصا يعود عليه بالبطلان)[1].

فمن استنبط من القرآن معنى يكفر به الأمة، ويجعلها في جاهلية كفر وشرك، ويخرج عليها بالبغي ثم يسمي البغي جهادا، ويدعي أن هذا الدين قد توقف وجوده قبل قرون، فإن هذا استنباط يعود على القرآن نفسه بالبطلان، وإلا فكيف نقل القرآن والحديث والعلم على يد أجيال وقرون كافرة، فهذا استنباط باطل.

٤ ـ احترم تراث المسلمين، وانطلق منه، وأضف إليه، وانتفع بما فيه من مناهج، دون الوقوف عند المسائل المعينة، التي أفرزها زمانهم

(١) الفتاوى الفقهية الكبرى /١/٢١٠/، ط: دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

وتجاوزها زماننا، لكنها عالجوها ونظروا فيها، وقاموا معها بالتصوير والتكييف والتعليل والتدليل، وفق منهج سديد من النظر، فخرجت النتيجة محققة لمقاصد الشرع في زمانهم، ولو أجرينا المنهج بعينه تصويرا وتكييفا لحوادث زماننا لخرجنا بنتيجة أخرى، تحقق مقاصد الشرع في زماننا، ولا تجمد أيضا عند أقوالهم، بل خذ منهم، وأضف إليهم، لكن إياك أن تستنبط المعاني والنظريات التي تستخف بمجموع جهودهم وعقولهم وجهودهم، ولا تخرج على الناس باستنباط يصدم مجموع كلامهم، فإنه حينئذ معنى منقطع الصلة بالوحي، ولا يجري على نسق العلماء في الاستنباط.

٥ ـ تفقد ما وقع وتكرر من قبل من مناهج الاستنباط، حتى لا تتورط في استنباط أو معنى أو فكرة أو أطروحة، ثم إذا فتشنا عنها وجدناها بعينها قول الخوارج أو غيرهم، فلا يزيد سعيك ولا نظرك على أن يكون تكرارا لمنهج منحرف، لكنك بعثته من رقاده تحت عنوان معاصر.

٦ ـ لابد لصناعة فهم صحيح، يكون أمينا على هدي القرآن وعلومه، من ثلاثة أركان عظام: وهي معرفة الوحي الشريف، ومعرفة مناهج فهمه، والإلمام بالواقع إلماما صحيحا، وإياك أن تكون ممن ادعى النص، وتمرد على المنهج، وغلبه الواقع.

٧ ـ الفقه والفكر والأطروحات والاستنباطات التي صنعت وأنتجت وتبلورت تحت ضغط نفسي، أو بين جدران السجون، أو بدافع الحماسة

فقط، فإنه لا يكون إلا فكرا مضطربا، لم يستوف حقه من النظر، ولم يتهيأ له مسلك صناعة العلم على معهود أهله، فقد روى البخاري في صحيحه قال: كتب أبو بكرة إلى ابنه ـ وكان بسجستان ـ بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان؛ فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يقضين حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**»[١]، والسبب هو أن الغضب والانفعال لا يدع للعقل مجالا لإحكام النظر، وحسن إجراء قواعد العلم على وجهها، بل يجعل الإنسان مشحونا ومحتشدا ومنفعلا ومضغوطا بفكرة انشعبت في نفسه، وأفعمها الكره أو الغضب، فمن أين يأتي حسن الاستنباط للوحي الشريف.

قال حجة الإسلام الغزالي في (المستصفى): (مثال هذا قوله عليه السلام: «**لا يقض القاضي وهو غضبان**» وهو تنبيه على أن الغضب علة في منع القضاء، لكن قد يتبين بالنظر أنه ليس علة لذاته، بل لما يتضمنه من الدهشة المانعة من استيفاء الفكر، حتى يلحق به الجائع والحاقن والمتألم فيكون الغضب مناطا لا لعينه بل لمعنى يتضمنه)[٢].

وقال أيضا: (كقولنا في قوله عليه السلام «لا يقض القاضي وهو غضبان»: إنه إنما جعل الغضب سبب المنع؛ لأنه يدهش العقل، ويمنع من استيفاء الفكر، وذلك موجود في الجوع المفرط، والعطش المفرط، والألم المبرح، فنقيسه عليه)[٣].

---

(١) صحيح البخاري /ح٦٧٣٩/.

(٢) المستصفى /ص٣٠٩/.

(٣) المستصفى /ص٣٣٠/.



ومعناه أن كل ما يدهش الفكر، ويشوشه، ويلحق به الاضطراب، ويعصف به عن استيفاء النظر، وتوفية العلم حقه، فلا يمكن بحال أن يولد علم وفقه وتفسير ومعرفة في أجواء الغضب ولا الضيق النفسي، فلا عبرة بنظر ولا طرح فكري يتولد في السجون، لاسيما إذا كان يتعلق بتفسير القرآن الكريم، والتأني في وجوه دلالاته، والكشف عن معانيه، فكيف إذا أضيف إلى ذلك خلو القائم بذلك من علم أصول الفقه، وعلوم البلاغة والعربية، ومقاصد الشريعة

٨ ـ باب المصالح والمفاسد لا يصلح للاجتهاد فيه إلا من أحاط بمقاصد الشريعة جملة وتفصيلا، كما قال الشاطبي رحمه الله؛ فإنه قال في: (الموافقات): (الاجتهاد ـ إن تعلق بالاستنباط من النصوص ـ فلا بد من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلق بالمعاني، من المصالح والمفاسد، مجردة عن اقتضاء النصوص لها، أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص، فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا)[1].

٩ ـ غياب المعرفة بمقاصد الشريعة، وغياب المعرفة بالسنن الإلٓهية، يتركان خللا كبيرا في الفهم، ومن لم يحط بأمثال هذه العلوم فسد فهمه للنص، وفسد فهمه للواقع.

١٠ ـ للسيرة النبوية قواعد في الاستنباط منها، واستخراج الأحكام من وقائعها، ومن تسرع في الإلحاق بها والقياس عليها فقد كذب على النبي

(١) الموافقات /٤/١٦٢/، ط: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: العلامة عبد الله دراز.

ﷺ ، ونسب إليه نقيض شرعه ، ومن كذب عليه فليتبوأ مقعده من النار ، قال الإمام الزركشي في (البحر المحيط): (ثم وراء ذلك غائلة هائلة ، وهي أنه يمكن أن الواقعة التي وقعت له هي الواقعة التي أفتى فيها الصحابي ، ويكون غلطا ، لأن تنزيل الوقائع على الوقائع من أدق وجوه الفقه ، وأكثرها للغلط)[1].

وبهذا تم الكتاب بعون الملك الوهاب ،

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

** ** **

(١) البحر المحيط /٤/٥٧١/.





الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

** ** **

الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين

أعيد اليوم بعث فكر التكفير الذي كان كامنا في كتب التيارات المتطرفة، فتم تحويله إلى تنظيمات وجماعات وتطبيقات، بل تولدت منه الأجيال الثواني والثوالث من الأفكار والتطويرات والاستدلالات، مما أفضى بنا إلى تيارات تقطع الرقاب، وتسفك الدماء، وتروع الآمنين، وتنقض العهود، وتمتهن دين الله، وتلصق به أفهامها المتحيرة، وتفسيراتها الفادحة، مما يمكن تسميته بظاهرة التفسير الغاضب للقرآن الكريم.

إنها تيارات تدعي الانتساب إلى الوحي، وتتمرد على المنهج، ويغلبها الواقع.

فهذا مشروع علمي أزهري مؤصل، يستعرض على مائدة البحث العلمي، والتحرير المعرفي الدقيق، خلاصة المقولات والنظريات والأفكار، التي بني عليها فكر التيارات السياسية المنتسبة للإسلام في الثمانين عاما الماضية، قياما بواجب البيان للناس، وصيانة للقرآن الكريم من أن تلتصق به الأفهام الحائرة، والمفاهيم المظلمة المغلوطة

www.daralfaqih.com



ISBN 978-9948-18-009-8

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION